
السائرُ في الدرب
د.بديع القشاعلة
لحنٌ رتيب يقرع مسمعي
وأصوات آتية من لجج الصمت
وعمق السكون ...

السائرُ في الدرب

تأليف دكتور بديع عبد العزيز القشاعلة

(خواطر وذكريات)

تدقيق لغوي:

دكتور موسى ابو شارب

مطبعة الرابطة الخليل

نسخة أولية

عنوان المؤلف :

فلسطين- رهط - 85357 (19-60)

هاتف :0509316282

badeea75@gmail.com

2013

إنَّ العُيُونَ التي في طَرْفِهَا حَوَرٌ قتلننا ثمَّ لم يحيينَ قتلانا

جرير

صوت الحناجر يعلو على صوت الرصاص وأزيز الطائرات...

بديع القشاعلة

أهداء :

الى جميع الذين احببتهم واحبوني

الى جميع الذين احترمتهم واحترموني

الى كل السائرين في الدرب

الفهرست

تقديم

حينما يختلج الوجدان ويعتمل الفكر تنساب على الورق خواطرُ تحمل في طيّاتها معاني تنبعث اشعاعًا ينير للسائرين في دروب الحياة. إنّ عنوان هذه المجموعة من الخواطر مستوحًى –كما يبدو – من طلاسم ايليا ابي ماضي، التي يقول فيها: أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير أم كلانا واقف والدرب يسير؟ لست ادري.

بيد أن كاتبنا – بخلاف أبي ماضي – يسير في دربه واثقًا لا يتيه متسلحًا بإيمانه وعلمه، متأمّلًا ناقدًا، ثائرًا على مواقف اجتماعية تهدّد نسيج المجتمع وتعصف بكيانه. لقد انبثقت خواطره سيلًا عرمًا ينمّ عمّا يدور في فكره ووجدانه حيال مواقف من الحياة وفلسفة الوجود وحركة المجتمع.

لقد قُيّض لي أن أُدرّس كاتبَنا الواعد بديع القشاعلة في ميعة صِباه تلميذًا نجيبًا نبيلًا جادًّا في مدرسة رهط الثانوية، يعشقُ العربية أيّما عشق، ويكبّ على مطالعة عيون الشعر والنثر بشغف شديد، من خلال تعبيره الكتابيّ واستمتاعه بدروس الشعر العربيّ الحديث في تسعينات القرن الفائت، لدرجة أنّ أبياتاً بل قصائد كاملة ما زال يردّد صداها ويستشهد بها في مقامات مختلفة، في حديثه وكتاباته. وشدّ بديع الرِّحالَ إلى روسيا ليطلب العلم ويدْرس علم النفس، فينكشف على أسرار النفس البشرية وخباياها، فيُضيف بعدًا آخر في إدراك الأمور وتحليل السلوك البشريّ علميًّا. وفي غربته في سانت بطرس بورغ، لم ينفكّ بديع عن القراءة والكتابة في فنّ الخاطرة والشعر. ومن المفارقات الطريفة أن أجده يومًا زميلًا محاضرًا في كليّة «كي» للتربية

إلى جانبي، فصدق حدسي وظنّي بأن بديع ما زال سائرًا على الدّرب، بل وأن قريحته تفتّحت وآفاقه توسّعت بفعل تطوافه في بلاد الغرب، واطّلاعه على الآداب الأجنبية، لا سيّما الروسية، فنهل من روافدها، ليغدو معين الأدب لديه أشدّ تدفّقا من ذي قبل. لقد تابعتُ خواطر بديع المنشورة على صفحات الصّحف ومواقع الإنترنت، فاجتذبتي بعضها لا سيّما تلك التي صيغت بأسلوب أدبي رصين ومؤثّر. وكان أن التقيتُ به في أروقة كلية «كي» قبل شهر ونيف، فاستوقفته وعرضت عليه أن ينشر ما جاد به يراعُه في كتاب، ففاجأني بأن لديه كمًّا من الخواطر، بل وأنه يقرض الشعر أيضًا، فكان عرضي عليه بمثابة مفاجأةً تردّد عندها في البدء. فاقترحت عليه أن يبعث لي كلّ ما كتب لأقرأه وأبدي عليه ملاحظاتي. وبالفعل بعد أيام حمل إليّ البريد الإلكترونيّ رسالة تتضمّن خواطر كثيرة ومتنوعة. ومن قراءة أولية لبعضها لا أخفى على القارئ أن كثيراً منها يرقى إلى مصافّ القطع الأدبيّة الجميلة. إنّ تمعُّنًا مليًّا في خواطر كاتبنا لَيجدُ أنه يكتب الخاطرة عندما يتعرض لمواقف وجدانية فتتحرك أحاسيسه، ويبقى هاجس الموقف يُلهِب خياله، فيكتب أحاسيسه تجاه الموقف. إن خواطره تعتمد على الانفعال الوجداني والتدفق العاطفي والتحليل الذي لا يخلو من توظيف علم النفس أحيانًا، ينمّ عن قوة ملاحظة ويقظة وجدان. خواطره الوجدانية تعنى بوصف نفسية الكاتب ونظرته الفلسفية والنقدية للحياة أو لمظاهر اجتماعية لا تروق له، وقد تشطح في الخيال أحيانًا إلى سرياليّة ما. وفي خواطره الإجتماعية يصف ما يمر من مواقف مستقاة من محيطه الاجتماعي المركّب بآماله وآلامه، بأحلامه ومتاهاته. ان استخدم العبارات البليغة السهلة الجامعة،

والمحسنات البديعية والصور البيانية، وتضمين تعابير من القرآن الكريم والشعر، يضفي على الخواطر جوًّا من الرصانة في الأسلوب، ويعكس بالتالي تأثر الكاتب بالتراث العربي قديمه وحديثه. ثمة أشعار متفرقة يجدها القارئ في نهاية المجموعة، وهي تندرج في الشعر المنثور الذي لا يلتزم بالوزن. وأترك للقارئ أن يستجلي في القصائد ما يودّ الكاتب أن يعبّر عنه، ذلك انها سهلة اللغة والمعاني وتنأى عن الغموض. وإنني إذ أقدّم هذه الباكورة من الخواطر والأشعار إلى القراء، آمل أن تكون فاتحة لنتاجات أدبية قادمة، راجيًا لبديع مستقبلًا أدبيًا زاهرًا وغدًا مشرقًا. وأهيب بالقراء أن يشجعوا كاتبًا ناشئًا ولد من أعماق الصحراء ومن رحم المعاناة في مخاض عسير، في ظروف عزّت فيها الأسباب وتقطّعت فيها السبل، وألّا يقسوا عليه وأن يغضوا عن هفوات قلم عاديّة قد تبدر في المجموعة، لا أن يصوّبوا سهام نقد تقتل كاتبًا واعدًا في طور الولادة. والله وليّ التوفيق.

د.موسى أبو شارب – القدس



ذكريات مع أمي

عندما رأيتُ أمي مريضة، اختلطت عليّ الأمور ودارت بي الدنيا وتهتُ في سراديب تشابهت علي مخارجها.. أصبحتُ لا اعلم ما يجري وما حدث، بثت العقول كل الترهات وتسربلت خطاي وصرتُ لا افهم ما يجري من حولي.. خليط من الأفكار والهواجس يصرعني ويصارعني الزمان، تتراكم الأحزان كالجبال، وتصطفُ الهموم في الآصال وتأبى الدموع إلا أن تبقى عصيّةً حيث الظلام والأسرار.. وتبقى العيون الباكيات شاخصات، تخاف الضاحكات الساخرات وتخجلُ من كل القاصرات.. هل يبكي الرجال، وهل ينفُضُون عن أجسادهم كل الأحزان، وينثرون من عقولهم الأوهام وهل تُعتصر القلوب وتحن الأكباد، وهل يشكوا من الوجع والآلام، وتطرف العيون الجمر الساكنات، وتصمتُ الشفاه، ترى!

ويهبط السكون على المكان فتخمد الأنفاس وترقد الكائنات وتتلبد الغيوم الماطرات ويسقط المطر فوق الرمال وتقصف الرعود الآمال، وتلك اللحظات التي كانت فيها أمي تخبز العجين وتغلي الحليب، وكنا نجلس من حولها وهي تغني أغنيتها الجميلة ''أمطري يا مطره على عروق ألشجره، أمطري يا مطره''.. وكنا نبتسم، وكانت قلوبنا تضحك وعيوننا مبتهجة ووجوهنا منيرة.. ولكن الزمان يغتالنا ويتخطانا ويطأ علينا ولا يبالي وتدور الدوائر وتتوه الأفكار والأحلام والذكريات، إلا تلك الذكرى الجميلة، التي كنا فيها نجلس حول أمي، والمطر

يشطف شوارع حارتنا، وهي تغني بصوتها الجميل أغنيتها القديمة ''أمطري يا مطره على عروق ألشجره، أمطري يا مطره''.

واذكر حين كنت استسلم بين يديها وهي تحركني ذات اليمين وذات الشمال وأنا باسطٌ ذراعي لا الوي على شيء ولا انبسُ ببنت شفه، سوى إني اتجه حيث تحركني وأحاول الهروب فلا اقدر على شيء.. ''تستور اسم الله الرحمن الرحيم، تستور يا صحاب المطرح، تستور يا مباركين''، كانت أمي تتمتمُ بهذه الكلمات وهي تسكب الماء الدافئ على رأسي وتمسكني بقبضتها المتينة وبالأخرى تدعكني.. وكان الماء الساخن يتناثر على جسدي ومع كلماتها تعروني قشعريرة جميلة، وهي لا تزال تتمتم، تستور اسم الله الرحمن الرحيم، تستور يا صحاب المطرح، تستور يا مباركين، كان ذلك حمام يوم الجمعة.



سنة كشهر

صرخاتٌ تدوي في الأفق وبكاء حزين يشق السكون، وصمتٌ خافتٌ ومتوانٍ.. ماتَ فلان.. توقفت الأنفاس.. التفت الساقُ بالساق وظن انه الفراق.. في مثل هذه اللحظات ينتفضُ جسدي مرتعشاً، كعصفورٍ بلّله القطرُ.. وتعروني مشاعرٌ متزاحمةٌ وهمساتٌ رتيبةٌ تطرق مسامعي توزعني أشلاء حيث لا ادري، حيث لا مكان ولا زمان.. والدنيا تسير بلا هوادة وتنقضي الأيام.. تسيرُ كجلمود صخرٍ حطه السيلُ من علٍ.. وما نزال نتربص بها ونتمسك بتلابيبها ولا ندري متى تتركنا ونتركها.

كلماتٌ تخرج من عمق الصواب وتعتصرُ الروحَ من الروحِ.. كلماتٌ تختلج في نفسي وتضجُ بصدري. كيف لا وقد اختلط الآن والمكان فأصبحتُ في دوامة لا متناهية.. وعبثًا أحاول الصمود وأتشبث بحبالٍ بالية اهترت منذ زمن، زمن تسارع إلى حد الجنون، سنة كشهر وشهر كيوم ويوم كساعة، زمن الجنون، كل شيء فيه يسير إلى النهاية.. إلى المحتوم.. والناس يأكلون ويشربون ويضحكون، يسيرون ويبتسمون والزمان يهوي إلى حيث هو يعلم إلى أين، ونحن نعلم إلى أين، ولكننا لا نبالي.. فهل من معتبر؟ الزمن يدور والسنوات تهرولُ والأيام تتوالى.. سنةٌ كشهر وشهرٌ كيوم ويومٌ كساعة..

* * *

لحظة عزاء

لحنٌ رتيبٌ يقرع مسامعي وأصواتٌ آتيةٌ من لججِ الصمت وعمق السكون.. ضبابٌ في ضباب وجو يملؤه السحاب ورشّات مطر تطرق الشباك ومن خلف الستار ارقب الضياء والطريق، وارقب بيتًا قديمًا كان قد دب فيه الحريق و لم يعد سوى ذكريات.. ذكريات من ماض غابر.. ترى! من كان هناك! ومن كان ضحية الحريق؟ ضبابٌ في ضباب، خطأ أم صواب أن دب الحريق في البيت القديم.. عيونٌ باكيةٌ خلف الستار ودموعٌ جاريةٌ وعيونٌ كالجمر.. ترقب الناس وترقب الطريق.. ترقب الزائرين، المصافحين الرائحين والغادين.. جموع شتى.. معزين.. وما تزال رشات مطر تطرق الشباك.. خطأ أم صواب أن تندثر الذكريات.. ترى ما الذي حدث؟ ما الخطب؟ من ذا الذي يموت قلبه؟ فيتحجر كالصوان؟ وينقلبُ وحشاً يحطمُ كل القلوب ويأبى إلا أن ينشر الحزن فوق كل البلاد.. تتجمد الروح ويأبى العقلُ إلا أن ينام وتمتد يد الشؤم لتقطف الورود وتنزع من الصدور كل القلوب.. غريزةٌ همجيةٌ تحرق الابتسامات وتلك الناصعات الأسنان البيض وتشعلُ فيما تبقى من الليل كل الزهور.. وما تزال رشات مطر تطرق الشباك.. ولحنٌ رتيبٌ يقرع مسمعي.. يلحن معزوفة جميلة مفعمة بالحزن والشجون..

***

لحظات

لعمرك ما الدنيا إلا لحظات عابرة وليل ينازع.. من أحب فيها فاز ومن أحسن فيها فاز ومن اعتبر فيها فاز.. وويل ثم الويل لمن يقوده الحسد وتغتاله الأحقاد.. ترى! ما الحقيقة؟ ابحث عنها في عيون الناس في مآقيهم.. فلا أجد سوى الحيرة والتساؤل.. وفي خضمّ هذا الضجيج أشم رائحة فواحة وعبقًا يملأ الأفق.. وردة برجوازية.. دفء وحنين.. بصيص من الأمل..

* * *

تسونامي

إذا زلزلت الأرض زلزالها واهتزتْ.. زلزلةٌ ترعبُ القلوب وترتجفُ لها المشاعر وتطيرُ لها الألباب.. زلزالٌ يقلبُ المكان رأسًا على عقب.. يفرُّ من أمامه الناس وتشخصُ فيه الأبصار.. قامت الساعةُ وصرخت الأرض وانفطرت وانشقتْ وارتعدتْ من كثرة الذنوب والخطايا.. ظلمٌ وظلماتٌ للنفوس في بلادٍ ليس فيها لذكر الله نصيبْ.. في بلادٍ يُذكرُ فيها الأصنام والأزلام وتُعْبد فيه الشمس والكواكب و يُسجَدُ فيها للصم البكم الذين لا يفقهون.. لم تحتمل الأرض كل هذه السخرية.. وأبتْ إلا أن ترتجف لتبتلع الترهات والشعوذات وكل ما تشعه النفوس من فساد في الأرض.. عاد وثمود.. قوم تبع وقوم لوط.. وقوم صالح.. عِبَرٌ يجري بها قدرٌ والله أجراه..

***

سقط الملوك

زلزال يخلف الشهداء، يخلف الأرامل واليتامى.. يوم يحشر فيه الزعماء الذين ظنوا أنهم زعماء، يوم تسوَدّ فيه وجوه الملوك.. ملوك الأرض.. لا يخلد عليها احد إلا الله.. يعزٌّ من يشاء ويذلٌّ من يشاء.. اليوم ملك يصولُ ويجولُ ويأمرُ فيطاع، وغداً هارب وطريد.. محكوم ومسجون.. ذلٌ وهوان.. سبحان الله.. قدر الله في الأرض.. يمكرون ويمكر الله والله خيرُ الماكرين.. ترى! ما الذي ينتظرنا في الغد؟ هل هو تسونامي؟ أم زلزلة؟ أم ماذا؟..



كيف لا نبكي

يقولون لي لا تبكِ ويلومون دمعي، فالرجال لا يبكون، وكيف يبكون؟ وهم الشامخون المتصلبون، الذين يقفون في وجه القهر ويتجرعون مرارة الحياة، الرجالُ لا يبكون، فالدموع في أجفانهم جفت وتحجرت، الرجالُ ينزفون ولا يبكون وليس من حقهم البكاء.. بكاء يريح.. كم هم الباكون في هذا الوجود، أصواتُ الأنين والكاتمين الدموع.. كم من ابتسامة تخفي خلفها سيلًا من الدموع.. تمتلئ الأرض بالنائحين المنتظرين منذ زمن بعيد، منذ ذلك العيد.. الذي لم يأتي والذي غاب عن الوجود وصار حلمًا وسرابًا، ضاع في الأفق العميق وأصبح غبارًا يحوم في السماء.. بين الأقمار.. أما آن للعيد ان يأتي وان تبتسم الفراشات وتعلو الزغاريد والأهازيج الجميلة العتيقة، التي ما سمعناها وما رددناها منذ أيام وليالي طوال.. كم هم الباكون على الذكريات الجميلة وعلى الأحلام السعيدة التي ضاعت وصارت غمام يتلفعه السواد.. لم لا نبكي؟ لم لا؟ فلنُخلِ سبيل الدموع المكبلة في أغلالها والمكبوتة حد القهر، فالدمع يريح ويخفف من وطأة الحزن الشديد.. لولا الحياء لعادني استعبار، شاعرٌ يقول، وإذا الليل اضواني بسطت يد الهوى وأذللت الدموع، وها هو ابن الرومي يبكي ابنه ويقول مخاطباً عينيه: بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي، فجودا فقد أودى نظيركما عندي.. فلنطلق العنان للدمع ليجري سيلًا يتدفق من نبع الحقيقة والصواب.. كيف لا نبكي والبكاء يريح..كيف لا نبكي والبكاء يساعدنا على الحياة.. كيف لا نبكي والبكاء رحمة..

* * *

وطني

يفرحُ الناس بأوطانهم.. يفخرون بهويتهم وينشدون أناشيد تملأ الوجدان آمالًا وتبعثُ في الروح السعادة والحياة.. وأنا ابحث عن وطني.. فمن ذا الذي يقول لي من أنا.. من أي بلد أنا.. ما اسم قريتي أو مدينتي أو دولتي.. أين حدودها، وما هي قراها وما هي مدنها.. شوارعها وحاراتها.. سهولها ووديانها.. هل فعلًا هي كما يقول درويش شوارعها بلا أسماء ؟ أذًا من أين أنا وما هو جواز سفري؟ يا لحيرتي ويا للوعتي.. أنا رقم من منزلتين، ثمانية وأربعون.. عجبًا! عندما يسألوني من أين أنا.. من أي بلاد جئت.. في أي ارض أعيش.. أقول لهم أنا من الثمانية وأربعين، ويعتريني حزنٌ غريب.. فكيف لي ان افرح وان افخر وان أنادي وأقول أني من دولة كذا وكذا؟ كيف اغني باسم بلادي وليس لي بلاد؟ كيف لي ان انشد أشعار وطني وليس لي وطن؟ حتى هويتي ليست هويتي.. حتى صورتي لا تشبهني.. فانا من بلد لا يعلمها إلا الله.. ولا يفهمها إلا الله والذين آمنوا.. كيف لي ان اشرح لصديقي من وراء البحار أني اسكن في رقمين مجموعهما يساوي أثنى عشر؟ ثمانية وأربعين.. وكيف لعددين ان يتسعا لآمالي وتطلعاتي؟ فرحتي وأحلامي؟ أحزاني وآهاتي؟ كيف يكون ذلك؟ فهل أنا فعلًا من قرية عزلاء منسية كما يقول درويش؟ هل حكم القدر علي أن أعيش في لا وطن؟ لا قرية ولا مدينة.. ان أكون بلا هوية اشعر بها وافخر بها؟ أعيشها وأحياها؟ ترى!

* * *

فرح وترح

الموتُ حط كالكفنْ.. حزنٌ خيم على المكان وليلٌ أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي.. لعمرك إن نوائب الدهر عظامُ.. نوائبٌ حطت رحالها وأبت الرحيل.. تعجز القلوب الكواسر عن تحملها.. فتترنح وتخطو بخطوات تتمايل حتى يلصق الجبين بالتراب.. فرحٌ وترحْ.. لحظاتٌ من الفرح المغموس بالحزن والترقب.. وصوت الأغاني يخفت شيئًا فشيئا.. ابتساماتٌ تنتشر في كل مكان ومن خلفها خوف وانتظار.. غصةٌ تملأ الأحشاء.. بيتٌ رفرفت فوقه الرايات.. الرايات البيض.. فوقع الخبر.. وسقطت ورقةٌ من شجرة في ساعات الفجر.. ورقةٌ يافعة جميلة هوت، فهوت معها القلوب واحتبست لها الأنفاس.. وبزغ الفجر على بيت سقطت منه الرايات وتجمع الباكون من كل حدب وصوب.. صمتٌ رهيبْ.. اختفت كل تلك الابتسامات.. سقطت مع سقوط الرايات.. الرايات البيض.. عظم الله أجركم.. عظم الله أجركم.. علت هذه الكلمات.. ومن بعيد.. من ذلك المكان الذي اشتعل بكل النيران.. من ذلك المكان الذي وطأته كل الأحزان.. تتردد كلمات تكاد لا تسمع، تخنقها العبرات.. شكر الله سعيكم.. شكر الله سعيكم.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. لله ما أعطى ولله ما اخذ.. إيمانٌ عميق.. إيمانٌ بأن الله يرقب المكان ويرقب تلك العيون والقلوب

الباكية.. إيمان بان الله لا بد أن يعوض المبتورين، المصابين.. إيمانٌ بأنه الامتحان الحقيقي الذي يُكرَمُ فيه المرء أو يهان.. والذي تبيضُ فيه الوجوه يوم تسود الوجوه.. فلا نقوى إلا أن نقول، إنا لله وإنا إليه راجعون.. وتمتدُ الأبصار إلى الأفق البعيد فتلمح ألوان قوس المطر الجميلة وطيرٌ يرفرفُ بجناحيه وفراشةٌ جميلةٌ تحوم حول وردة الجوري العطرة.. فترتسم ابتسامةٌ خفيفةٌ على الشفاه ونسمةٌ باردةٌ تداعب الأجفان..



قنينتي

ذهبتُ في رحلةٍ إلى مدينة براغ في تشيكيا، براغ مدينة جميلة جدًا.. تنطبق عليها مقولة ”جنة الله على الأرض“ فهي مدينة قديمة وقد أبدع أُناسها في بناء القصور المذهلة والجسور الرائعة والساحات البديعة، ومهما زدتُ في وصفها فلن أعطيها حقها ولن تعرفها إلا إذا زرتها.. كان لي فيها بعض المواقف الطريفة والتي استوقفتني وأذعنتُ بعض الوقت متفكرًا فيها.. من هذه المواقف، موقف قنينة الماء وبراميل النفاية.. كنت أجولُ خلال النهار في شوارع براغ الضيقة والمرصوفة بحجارة هندسية بديعة ترسمُ ملامح الزمن القديم وكانت قنينة الماء في يدي والماء قليل وحرارة الشمس اللاذعة في تلك البلاد تسرع من عملية امتصاص الجسم للماء فتحتاج خلال تجوالك إلى الكثير منه.. كنت حينها عطشًا فشربتُ ما تبقى في قعر القنينة وتمنيتُ لو كان فيها المزيد، وبقيتْ قنينة الماء في يدي فارغة.. فبحثتُ عن برميل النفاية حتى أتخلص منها.. فوجدتُ أربع براميل مصطفة في سطر واحد بديع وذات ألوان مختلفة وجميلة فتعجبتُ قليلًا ولكني لم اعر لشعوري هذا اهتمامًا فرميتُ القنينة في احدها وسرت في طريقي ولكن الأفكار سارت تأكلني والأسئلة تدور في ذهني، أربع براميل! ألوان مختلفة! لماذا؟ يا لهذا الوسواس القهري الذي يطاردني ويؤرقني.. اللعنه! يجب أن أعود لأتفحص الأمر.. وفعلًا عدتُ بعد أن قطعتُ شوطًا من المسير.. نظرتُ إلى البراميل بتمعن وكان مكتوب عليها باللغة التشيكية كلمات، كل برميل مكتوب عليه كلمة، فقرأتها وكنت

اعرف اللغة الروسية.. وهي قريبة منها.. فعلمتُ أن البرميل الأول مكتوبٌ عليه ”ورق“ والثاني ”بلاستيك“ والثالث ”حديد“ والأخير ”زجاج“، فابتسمتُ وبحثتُ عن قنينتي فوجدت أني رميتها في خانة الورق.. فأخرجتُها وأنا أتلفتُ حولي، فقد يحسبوني من جامعي القناني.. ووضعتها في مكانها الصحيح وسرتُ في دربي مبتسمًا..



كش ملك

صوتُ الدبابات في كل مكان، وفوهات المدافع تقذف الشر في كل الساحات، ترعبُ النساء والأطفال وتبث الجزع والفزع بين المؤمنين.. الله سوريا وبشّار وبس! الله سوريا وبشّار وبس! بهذا النداء تهتف الحناجر الظالمة والخائفة ولا صوت يعلو على صوت الأسد.. هه! هذا ما نسمعه من التابعين وتابعي التابعين.. الخائفين المهزومين منذ عقود.. ويأبى الشرفاء إلا أن يرددوا الهتافات ضد النظام.. ضد الظلم والاستبداد، ضد الذل والمهانة، سيسقط الأسد لا محالة كما سقط شين العابدين والبقرة الضاحكة وذلك الذي يصيح زنقة! زنقة! ويتعثر في ثوبه الطويل وسيسقط عما قريب أو أكاد أقول سقط.. واليمني الذي يأبى إلا أن يجلس على الكرسي رغم الحروق التي التهمت مؤخرته.. كش ملك كش ملك.. سقط الملوك و لم يبق إلا ملك الملوك.. اختفت الزعامات واكتسحها سيلٌ عَرِم من صيحات الشعوب.. فصوت الحناجر يعلو على صوت الرصاص وصوت المدافع وأزيز الطائرات.. حتى وان كان همسًا أو اقل من الهمس.. فصوت العقول لا يهزم أبدًا وان طال الزمان.. كش ملك! سقط حاكم تونس الذي تنوء العصبة عن حمل مفاتيح خزنته.. كش ملك! سقط حاكم مصر فرعون العصر.. كش ملك! احترق حاكم اليمن وقوم تبع.. كش ملك! سيسقط صاحب الزنقات والكتاب الأخضر.. كش ملك! سيهوي جمل سوريا وفيلسوفها.. كش ملك! لا محال..

***

شر البلية ما يضحك

اذكر يوم كنت في الحج وقد أدهشني أن أرى أممًا كثيرة وقبائل شتى ومتنوعة وثقافات عديدة.. تفاهم عجيب وتفاعل بينهم رغم اختلاف لغاتهم.. عجيبٌ أمر الحج.. في زيارة واحده تستطيع أن تزور العالم بأسره وترى الحضارات كلها مجتمعة في مكان واحد.. في تلك اللحظات الهادئة الجميلة، كنت أصلي في زاوية من زوايا المسجد الحرام والناس من حولي بمختلف أجناسهم.. توجه إليّ فتى اعتقد انه في العشرين من عمره وسألني مبتسمًا: أنت مصريّ؟ فابتسمت بدوري وقلت له كثير من الناس يعتقدون ذلك.. وأنا لست مصريًا بل فلسطينيًا.. فتابع الشاب ابتسامته تلك وقال، أنا يمني، تشرفنا.. في تلك اللحظة.. أصدقكم القول، انتابني شعور غريب.. ذلك الشعور الدفين في داخلي وتلك المعضلة.. معضلة الانتماء.. من الأمور المحزنة في حياتي كوني لا اعلم إلى من انتمي شعوريًا.. أو لا اشعر بهذا المعنى في أعماقي البعيدة.. أعاني من مشكلة في الهوية وقد أصل أحيانًا إلى حد الشيزوفرينيا والانفصام في الشخصية.. بصراحة لم اشعر بشيء عندما قلت له إني فلسطيني، لم تنتَبْني تلك القشعريرة المعهودة.. عندما أقول أنا فلسطيني اذكر غزة والضفة.. لا ادري إن كنت انتمي إلى هذه الكلمة شعوريًا أم فقط عقليًا، ينتابني أحيانًا شعور بالذنب.. طبعًا أنا لست إسرائيليًا.. شر البلية ما يضحك.. عربيٌّ إسرائيليٌّ.. هه! يعني من بني إسرائيل.. هه! عجيب! من أكون؟ ولمن انتمي؟ يا

لها من اسئله صعبة.. لن أجد لها جواب، فقط اشعر بالحزن العميق.. ورغم هذا يحضرني أمرًا طريفًا في الحج.. في ذلك الوقت،كنت أسير في شارع من الشوارع المتفرعة في مكة المكرمة، شارع أم القُرى.. يَنفِرُ الناسُ بعد الصلاة عائدين إلى مساكنهم، جموعٌ وجموع أجناسٌ شتى وألوانٌ شتى.. من كل حدب ينسلون، سيلٌ جارفٌ من البشر لا يمكنك مقاومته، إلا أن تسير معه وتتجه إلى حيث يتجه.. منهم من يذكر الله ومنهم من يذكر الحياة الدنيا، ومنهم من تشده روعة المكان فيفغر فاه ويشخص في البنايات والناس، هذه الأمم والقبائل تحمل معها ثقافاتها وسلوكها وقيمها وعاداتها.. كل منهم يحمل بيته فوق ظهره.. وهم يسيرون جماعات وفرادى، منهم المبتسم ومنهم المتجهم، وفي وسط هذا السيل من الوَرى تقفُ البائعات السود.. المتّشحات السواد.. فتياتٌ منقّباتٌ وغير منقّبات، يبعن الجلابيب والمناديل وكل ما تشتهي أن تشتريه بريالاتك أو دنانيرك.. تعال يا حاج! تعال يا حاج! اشترِ يا حاج! بريال! بخمسة ريال! وهكذا.. وفجأة تخافُ الفتيات البائعات وتبرقُ العيون وتحتبسُ الأنفاس وتنطلقُ السيقان كالريح المرسلة أو أسرع وتلملمُ بضاعتها بسرعة البرق، البلدية! البلدية! وكأن البلدية غول مرعب، وحش مخيف.. هه! اقسم إني رأيتُ الرعب في عيونهن.. أدهشني هذا الأمر.. شر البلية ما يضحك.. هه!



الموت في الميدان طنْ

الصّمتُ حط كالكفنْ.. ما أحلى هذه الكلمات، لطالما رددتُ هذه الأبيات الجميلة للشاعر أحمد حجازي.. إنها تداعبُ المشاعر العميقة، المشاعر الإنسانية، تلك التي تغربتْ والتي عاشتْ الوحدة.. الموتُ في الميدان طْن.. الصمتُ حط كالكفنْ.. صمتٌ مدهش يتخلخل في جوانب حياتنا.. يوزعنا رذاذًا كرذاذ اليَمّ، صمتٌ في كل مكان، لستُ اقصد عدم الكلام، فالكلام في كل مقام والضجيج يملأ الأرض.. بل ذلك الصمت المقيت.. في بلادي الناس مشبعون باللامبالاة.. في بلادي القافلة تسير ببطء ولا احد يكترث، إلا القليل والذين هم لا يكفون، وتعتورهم بين الحين والآخر مشاعر اليأس والهزيمة.. في بلادي الناس قاعدون، يشيرون.. في بلادي تكثرُ الشعارات والخطابات، في بلادي المنتقدون كُثُر والمراقبون كُثُر والمشككون كُثُر.. بلادي فيها المهرولون إلى العيوب والهارعون إلى الأخطاء الذين يصبون الماء في الرمال ويغطون الشمس بالغربال..

* * *

الدراكولا

مصاصُ الدماء لم يرحل بعد، ولا يريد الرحيل.. مشواره لم ينته بعد.. يعيش منذ عقود متشبث حتى الموت أو اللاموت، دمهُ ثقيل لا يطاق ولا يكترث لتلك الصيحات وكل الصراخ.. ارحل.. ارحل.. ارحل.. لم يشبع بعد ولم تَكْفِه كل الدماء.. فهو يشرب حتى تمتلئ العروق وينام كل الليل ثم يفيق ويبحث عن طعم آخر من الدماء.. لقد جفت كل الدماء وما تبقى سوى الدموع وما زال الدراكولا يصول ويجول ومن حوله كثيرٌ من الدراكولات، انتشر الموت في كل مكان وفي كل البلاد، حتى الأطفال ماتوا، يُقتلون ويُقطعون ويُسلخون، وقبور جماعية.. فهم لا يريدونه ويكرهونه حد الموت ويمقتونه ويطالبونه بالرحيل، وما زال الدراكولا يصول ويجول ومن حوله كثير من الدراكولات.. يسقط الدراكولا... الشعب يريد إسقاط الدراكولا.. كفى شربًا للدماء، فما بقي في العروق سوى الدموع.. ولكنه لا يفهم.. لا يفقه شيئًا.. يتمسك في البقاء ويكشر عن أنيابه البيضاء.. ويقتل كل يوم عشرات ولا تردعه كل الصرخات وكل الآهات.. لا يكترث لتلك الكلمات.. ويبقى يصول ويجول، ويأبى الرحيل، يأبى السقوط، والموت في كل الساحات.. والدماء في العروق جفت، ولم تبقَ سوى الدموع، وتلك الصيحات المدوية في الأفق.. التي تأبى أن تهجع أو تنام.. ارحل! ارحل! ارحل!

***

أسد البحر

انقضوا عليه في ليلةٍ سوداء، كان نائمًا مطمئنًّا، كان يحلم حلمًا سعيدًا، وقد زاره رجلٌ جميلٌ يلبس لباسًا فضفاضًا ابيض منيرًا.. بشره بالجنة.. قال له آن أوان الجنة أيها المرتحل.

لقد جمعوا له من كل قبيلةٍ رجلًا، داهموه وهو يصلي في جوف الليل.. أطلقوا عليه وابلًا من الرصاص والصواريخ.. أطلقوا عليه كل ما يملكون من نيران.. كانوا خائفين، يرتجفون ويرتعدون.. فالأسد يرقد في الدار.. تعاونوا عليه وتكاثروا، فقتلوه وحملوه وألقوه في البحر العميق.. حتى لا يفيق..

أيها الراقد في عمق البحار عليك السلام.. ارقد بسلام حيثما كنت، حيث الطمأنينة والهدوء، حيث يستريح الفارس الجميل، ذو العينين الطفوليتين التي تأبى إلا ان تتسرب إلى أعماق النفس وتسرح حيثما تشاء.. فلا يضرنّك في أي بحرٍ ألقوك.. لا تجزع.. الحر لا يجزع ولا يخاف أين يموت ومتى يموت، فمهما فعل الحاقدون.. دعهم يفعلون ما يريدون.. فليحرقوا الجسد وليمزقوه، ليقطعوه أشلاء وليذروه مع الرياح.. فالروح لا تموت ولا تنتهي، بل تبقى إلى أبد الآبدين..

ويحهم! وويح كل الجبناء! فقد شُنق عمر المختار من قبلُ، شيخ المجاهدين وأسد

الشيوخ، يقتلون كل من يكره الظلم ويأبى الاهانة والخنوع.. ففي عقيدتهم هم الأعلون، في عقيدتهم كل الخانعين المستسلمين والمنبطحين هم الرجال الصالحون.. أما الذين يمقتون الظلم ويرفضون الاهانة فهم لا يستحقون الحياة.

أيها الراقد في مكان بعيد عليك السلام.. أيها المتوسد رمل البحار عليك السلام.. فأنت حر الآن.



الصامتون

سكونٌ يخيم على الأنفاس، ويأسرُ بقايا الذكرى ولحظات من الصمت المقيت.. أمواجٌ من الليل تعتريني، تتلفعني وتهزني فأنتفضُ واقفًا وارقبُ الطريق والأضواء، ونجوم خلف أستار الغمام.. ارقبُ السائرين المترنحين وجموع المهرولين.. الوان شتى من البشر يحدقون في الأفق البعيد.. أناس وأناس لا يلوون على شيء.. إلا أن يسيروا مع السائرين.. منهم المبتسمون، الصامتون والباكون.. يحملون بيوتهم فوق ظهورهم، مشاعرهم، أحوالهم، أحلامهم وأحزانهم، فهمّهم للحياة.. يفكرون آناء الليل وأطراف النهار.. متى سيكون أفضل، وتنبعث من أفواههم عبارات.. غدا إن شاء الله أفضل.. آمنت بالله العظيم.. الحمد لله على كل شيء..

يعود السكونُ ليخيم على المكان، وتختفي النجوم خلف الغمام، وتنطفئ الأضواء في الطريق، ويهدأ الليل وتهجع الأصوات ويختفي الناس.. المترنحون الحالمون.. الحاملون على أكتافهم الزمان والحالمون بغد مشرق.. الصامتون..

* * *

كوخنا

في كوخنا البعيد.. تقاسمنا الابتسامة والكلمة واللقمة، حتى انفاسنا تقاسمناها.. في كوخنا البعيد.. حيث الخيال، وازهار النرجس تعانق شقائق النعمان، حيث تبتسم النجوم وترقص على نغمات العصافير الخضر المتمايله والفراشات.. في كوخنا الصغير تعانقتْ ارواحنا وامتزجتْ القلوب.. ترقبُ العيون الرائعات كل الدروب ويبتسمُ الثغر الجميل فيخفق القلبُ وترتعدُ المشاعر ويتسامى الفؤاد.. وافقدُ الجاذبية واطير، احلقُ فوق الغيوم العاليات.. فتركضُ امامي وصدى انفاسها يحضنني.. احاول ان امسكها فتتملص كالهواء، ونركضُ نتمايل ونترنح كالثمالى.. في كوخنا البعيد، خلف الاستار وخلف الضياء.. كوخنا، لا تدركه الابصار ولا تلمسه الحواس، حيث تمتزجُ العواطفُ وتنسكبُ الاحاسيس في كل مكان.. كوخنا البعيد..



أمير المؤمنين

يهدأُ الليلُ وتنطفئُ الشمسُ وتلبسُ السماءُ ثوبها الأرجـواني.. تلمعُ النجومُ في السماء وتسكن الطيورُ وتهجعُ الكائناتُ، وأسمع نباح كلب بعيد وأضواء الشوارع الخافتة.. نسيمٌ جميلٌ يداعبُ البيوت.

أخلدُ إلى النوم، وأتلحفُ اللحافَ وانكمشُ في الفراشِ ابحثُ عن الزوايا الدافئة.. النومُ يداعب جفوني اشعر بالإرهاق، واستسلمُ للنعاس ويفرضُ سيطرته علي.. فأنام ملء جفوني.. حلمٌ يراودني، حلمٌ يلاحقني، حلمٌ وردي.. احلمُ إني في دولة فيها أمير المؤمنين، يلبسُ ديباجة بنفسجية ويشار إليه بالبنان، يقولُ فيسمع له ويأمرُ فيُطاع.. يجلسُ في المجالس الكبرى فترتعشُ له القلوب وتنتفضُ له الأبدان، انه أمير المؤمنين.. يتحدثُ فتصغي له الآذان وتشخصُ إليه الأبصار.. أميرُ المؤمنين قال.. أميرُ المؤمنين أشار.. غضب وتوعد.. مثل هارون الرشيد.. انه أمير دولتي.. دولتي ليس فيها عواصم وليس فيها حدود، دولتي ليس لها أسماء، تمطرُ الغيمة فيها حيثما تشاء.

حلمٌ جميلٌ يشرحُ صدري، حلمٌ يظهر وأنا في سباتٍ عميق وفي نومٍ هادئ.. وقت السحر ونسيمُ الفجر يداعبني.. حلمٌ يشعلُ فيما تبقى من الليل كل الضياء والشموع.. ويسطعُ الضوء وتنكشفُ الشمس ويضيعُ الحلم.. أفيقُ فانظر حولي

أفتشُ عن أمير المؤمنين وعن دولتي، فلا أجد سوى وسادتي وبقايا فنجان قهوتي وقنينة ماء فارغة، فيتجعد جبيني وتنكمش وجنتي.. فتكشف نواجذي عن ابتسامة لا معنى لها.. فأقول انه حلم، ذلك الحلم الذي يراودني.. كثيرا ما يراودني..



لحظات تصرعني

ما أصعب الانتظار، وما اشد وقع اللحظات البطيئة.. التي تُعَدُ فيها الأنفاس وتُسمَعُ فيها خفقات القلوب والزفرات.. ثقيلةٌ هي اللحظات التي ننتظر فيها المصير.. بئس المصائر التي ترتبط بلحظات من الزمان.. كم أنت قاسية يا ساعتي، ويا حائطي الذي احتضنتها.. لم لا تسيرين.. هل أصابك العطب؟ أم اكتأبت؟ أم أن الكون توقف وهمد؟ حتى ساعة يدي لم تعد كما كانت.. صمت الكون وسكن، صمتٌ شديد حتى الانزعاج.. لم اعد اسمع شيئًا.. حتى الأنفاس توقفتْ.. و لم تعد خفقات القلب، تربصي أيتها الساعات.. افعلي ما تشائين، فأنا لا أخافك حتى وان آلمتني بمخالبك، حتى تلك الأوقات التي تغدريني فيها.. امتطي كل الخيول وسَلي كل السيوف، فلن اجزع ولن استكين، لا بد لليل أن ينجلي وتلك السيوف البوارق ان تُغمد.. حتى اللحظات الهادئة التي انتظر فيها وتساورني الشكوك، لا تخيفني، فانا اشعر بالأمل رغم الكدر.. الحياة ستبتسم، لا محالة! كلمات اسطرها والحزن الشديد يعتريني، ولا أقوى على البكاء وتأبى الدموع أن تريحني فيعتصر قلبي وتختنق أنفاسي، لا استطيع أن اصف مشاعري وأحاسيسي وتنتهي الكلمات وتقف الحروف وتتوارى الأفكار.. يا لهذه الأعاصير التي تختلج في نفسي، دوامة من اللاوعي والتخبط، ترى ما الذي يخبئه لنا المستقبل؟ تعبت من التفكير وحيرتني التساؤلات.. كيف لي أن ارتاح وكيف للناس أن ينسوني؟ وان لا يتحدثوا عني

في لياليهم الطويلة.. يا لهذا العبث! اتركوا الناس أيها الساكنون حيث الظلام الدامس وحيث لا ترى العين ولا تسمع الأذن ولا يتكلم البشر.. أيها القاطنون فوق الرمال المتحركة.. اتركوا الناس وشأنهم.. اتركوهم يرحمكم الله...

* * *

أيها المعلم !

أيها المعلم! لماذا تضرب الطالب؟ سؤال طالما خالج العقولَ باحثًا عن جواب مرضٍ.. أنا لا اشكك ولو للحظة بان الجواب ليس بالأمر البسيط ولو بدا لأول وهلة انه هين، فالإجابة على هذا السؤال تحتاج الى الوقوف كثيرًا والتمعن مليًا فيما يفعله المعلم بصورة عامة في المدرسة، وعندما يطرح هذا السؤال تعلو وبصورة لا إرادية أفكار ومصطلحات كثيرة وتتضارب الأطروحات والتساؤلات في مخيلة المعلم، من هو المعلم القوي؟ من هو المعلم الصارم؟ من هو المعلم الجيد؟ ما المقصود بالاحترام؟ وما الفرق بينه وبين الخوف؟ فالمعلم أولًا يحتاج أن يجيب على هذه التساؤلات حتى يتمكن من الإجابة على السؤال الأول..

فعلًا أيها المعلم! لماذا تضرب الطالب؟ والمعلم دائما على استعداد أن يبرهن للجميع انه على حق، وان الضرب وسيلة هامة تساعد المعلم على التعامل مع الطلاب في الظروف القائمة، وهو يضع الفرضيات والمسلمات التي تقود تفكيره وسلوكه كأن يقول، هم تعودوا على الضرب، لا يسمعون الكلام إلا بالضرب، حتى اني سمعتُ مربيًا فاضلًا يقول:"هذه امة لا ينفع معها إلا العصا.. والعصا لمن عصى"..

طبعًا أنا لا أحاول أنا اعطي الحلول، واعلم أن من يده في الماء ليس كمن يده في النار.. طبعًا لا أتفلسف! ولكني أضع التساؤلات أمامك أيها المعلم الفاضل، أضع

حيرتي بين يديك، فما الذي يفعله الضرب بعقول الطلاب؟ ما الفائدة المرجوة من الضرب؟ هل هناك بديل؟ ما هو شعورك وأنت تفعل ذلك؟ وما شعورك وأنت ترى ابنك يُضرب أمامك؟

مرة أخرى انا لا أُذنب أحدًا ولكني محتار وابحث عن جواب.. فأيها المعلم! لماذا تضرب الطالب؟



عرب على عرب

أحجم عقلي عن التفكير، و أصابتني رجفة خلطت كل أعماقي، كيف لا استغرب وكيف لا اهلع أو افزع أو ارتعب؟ عرب على عرب.. جنود أقوياء أشداء يطأون بأقدامهم الكبيرة رؤوس الناس.. مقيدون ومكبلون.. والجنود يقفزون على ظهورهم، يستجمعون كل ما أوتوا من قوه ويضربون البطون والظهور والرؤوس.. عرب على عرب.. بئس ما يفعلون.. يا لهؤلاء الجنود "البواسل" إنهم يدقون الأرض بأقدامهم يملئون الدنيا غبارًا.. حرية! حرية! هذا ما تريد؟ يقولونها للثائر المكبل بالقيود، ثم يطعنوه "بالبساطير".. فلا يقوى على شيء، إلا أن يتأوه ويتألم ويقول: "حسبي الله ونعم الوكيل".. أبكتني تلك المشاهد، لِمَ كل هذا الجنون؟ لم كل هذه "الساديّة"؟ لان الثائر قرر التمرد على المفسدين في الأرض وعلى ذلك المخبون، إمبراطور دمشق، ذلك المتسربل ثوب البغضاء.. عرب على عرب.. دوامة من الأفكار جالت في خاطري.. ما كل هذا الزخم.. اشعر بشيء غريب، حصار يكتم الأنفاس فأحاول الابتعاد عن التفكير في هذا الأمر فيعرقل الدجى خطاي والمكان الحالك بالسواد يربض على صدري، التمس الطريق عبر الأفكار فيختلط الآن والمكان.. ضجيجٌ يعتصر الروح من الروح.. فما الذي أوقد كل هذا الحقد البغيض؟ وما الذي افرغ في الكون كل هذا الظلم المميت؟ رغبة عمياء توزعت بقايا كدر ورماد.. عرب على عرب..

***

زمن الغفلة

زمن فيه الغافلون النائمون يسيرون في طريق يكتنفه الضباب من كل صوب، ضبابٌ كثيفٌ حد العمى.. وتدورُ رَحى الأيام وتتسارع خطى الزمان ويصعب على المرء متابعة اللحظات، لحظاتٌ ممتلئةٌ حد الثقل المقيت.. يكاد المرء يجزم فيه أن الأمس هو اليوم وأن الغد آت دونما استئذان.. زمنٌ زالت منه البركات، ويتساءل فيه المرء عن تلك اللحظات الطويلة الجميلة، لحظات من السمر والأصدقاء سواء، والانتظار الذي غاب منذ أمد بعيد.. انتظار اللحظات تلو اللحظات والدندنة على أوتار الزمان، زمان كان يلحن سيمفونية تترنح ألحانها دون انقطاع، وتدور الأيام وتمر السنون دونما فتور.. ولا ندري كم هي أعمارنا.. عشر من السنوات لا تسير.. عشر من السنوات دون تغيير.. عشر من السنوات تجمدت في أرواحنا.. والزمان أسير ويسير.. وما هي إلا ومضاتٌ سريعة من الوعي حتى تدوي سنوات الأربعين.. في الأربعين من العمر! والأحاسيس والمشاعر ما زالت في العشر سنين.. زمن الاجترار، زمن يجتر الأيام واللحظات، يكفكف غيلة إحدى يديه ويبسط للوثوب علينا أخرى.. زمن اللاشعور وساعات من اللاوعي.. اليوم أمس وأمس غد.. والموت آت لا محالة، نموت وكأننا لم نحيَ، نموت وكأننا لم نذق

طعم الحياة.. وتبكي العيون تلك الذكريات وتلك اللحظات التي كانت تلتقي فيها الأنفاس وتصطف الأكتاف على الأكتاف.. تسارع الزمان يقتلنا ويشتتنا أشلاء حيث لا ندري، حيث يختلط الآن والمكان.. زمن الغفلة.. والغافلون النائمون في زمن الاجترار وزمن اللاشعور..



كلمات ليست كالكلمات

تقرعُ الأمطارُ الطبول، وعلى الشباك رشقُ قطراتٍ من الماء.. فيصبحُ الواقع خيال، تراه عبر النافذة سراب.. وعيون شاخصات ترقبُ الطريق والكلمات.. كلمات ليست كالكلمات.. تضجُ بالحنين والآهات، وترفضُ العيون أن تبوح وتخفي الأسرار، وتحمل ما لا تحتمل من أثقال، وتستحي أن تذرف ما تبقى من العبرات وتخجلُ من كل الصبايا والفاتنات.. فالبكاء ليس من شيم الرجال والضعف ليس من صفة الرجال، وعلى الشباك رشات مطرٍ.. فترى الحقيقة عبره خيال..

* * *

احذري

احـذري! أيتها اللحظات المجنونة كل الجنون، والمتأبطة كمًا من اللامعقول والمستحيل، وأنت تسيرين بخطواتك السريعة تهرولين، احذري! تمهلي ولا تختالي، فلا احد يحب الخيلاء ولا احد يحب المتكبرين السائرين في الطريق دون التفات.. احذري! من كل الغرور، فالسماء بعيدة والنجوم لن تزيني بها شعرك الأسود الطويل.. تمادي وتسلقي كل الحبال للوصول إلى الشهب العاليات.. فلن تلمسيها ولن تأخذي منها لونها الذهبي، توقفي أيتها اللحظات! وكفي عن العويل! اصمتي فالصمت أجمل الأفعال، وأهدأي، وهدئي من روعك، فالحياة أجمل من ان نمر عليها مر الكرام.. احذري! أيتها اللحظات..



الثأر

زمنٌ كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علٍ.. يا لتلك الرائحة النتنة وتلك الغيمة السوداء المتلفعة ثوب من غمام اسود حتى الحداد.. شر يتطاير في أنفاس الناس، تنبعثُ الروحُ المعتصرة من الحزن الشديد والكره الشديد والحقد الشديد.. موت وقتل وتشرد.. آهات من بعيد.. اللعنة على زمن يتحول من فرح إلى ترح في اقل من جزء من الثانية، قبل ان يرتد إليك طرفك.. ما الذي حدث؟ لماذا كل هذا المرج والهرج؟ صرخاتٌ تدوي في كل آن، وآهاتُ التشرد تأن في كل مكان.. انقلب الرأسُ على العقب، و لم يبق الا التحمل، لم يبق سوى البكاء، حتى تجف العيون، حتى تتشقق الوجوه.. يا لصيحات التشرد، ويا لصيحات الثأر.. يا لَعبث العابثين!



الليبرالية

صراعاتٌ متنوعةٌ ومختلفةٌ تدور رحاها بلا هوادة ولا رحمة.. الكل يصيح من عنده ويتشدّق بما يمتلك من كلمات ومصطلحات.. والجميع يشد بطرف الثوب علّه يحصل على الحصة الأكبر.. قد يكون صراعاً طبيعيًا لكون الديمقراطية تعني الاختلاف والتنوع، فالخلاف لا يفسد للود قضية.. هذه لعبة الديمقراطية.. إرادة الشعوب.. اقصد تلك الشعوب التي تفهم قوانين هذه اللعبة، فالديمقراطية ليست اختيار ما تريد.. بل اختيار ما يتماشى مع روح العصر، يعني لا تكن غبيًا وتختار من تريد أنت، بل اختر ما يريدون منك أن تختار.. لأنك حينها لن تكون ديمقراطيًا.. بل ستكون قندهاريًا أو بنلادينيًا.. عجبي!

كُشف الغطاء، فبصرك اليوم حديد.. أمور قد لا نكون نتصورها أو لا نريد أن نتصورها على الاقل.. صراع بين الليبرالية والإسلامية.. طبعًا أن كنت تشمئز من مصطلح ''ليبرالية''، فيمكنك استخدام مصطلح ''عَلمانية'' أو ''مدنية''، ورغم إن الإسلام ليبرالي بطبعه ومدني بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، إلا أن اللعب بالمصطلحات وما تحتويه من معنى هو المصيبة الكبرى.. فكيف لا يكون الإسلام مدنيًا وهو الذي أسس القوانين وشرع أسس الحياة والمعاملات.. وكيف لا يكون الإسلام ليبرالياً وهو الذي يعطي الحرية والحق للجميع ويدعو إلى المساواة بين الجميع وعدم الإكراه أو الغصب.. أن كل ما في الأمر هو أن الليبرالية أو المدنية

أو العلمانية التي يدعون إليها ويتفوهون بها، والتي هي حلوة في معناها إلا أنها مرة في استخدامها، كلمة حق يراد بها باطل.. هي ترك الدين.. ليس هذا فقط بل وخلعه من القلوب والأبصار، فما لله، لله وما لقيصر، لقيصر.. لا دين في الدولة ولا دولة في الدين.. هم يريدون مطاردة الإسلام حيثما يكون.. عجبي!

تتعرى إحدى الناشطات السياسيات كما يدعونها وتقول أنا حرة.. فهو زمن الليبرالية، الحياة بلا قيود.. كل إنسان يفعل ما يحلو له.. "التعري" هو الليبرالية.. عجبي!



تنقلب الامور

كانوا يعانون اشد أنواع الظلم في عهد الطغاة، وكانوا رموزًا للنضال والكفاح ومعارضة السلطان، و لم يكن يجرؤ احد من السياسيين ورموز السياسة و كل من يكتنفهم من إعلاميين وصحافة على أن يقولوا كلمة حق في وجه السلطان.. كان هؤلاء يتخافتون في الزوايا المظلمة ويمارسون كل أنواع النفاق وكان يُسمح لهم أحيانًا بان يُظهروا شيئًا من المعارضة المتصنعة للحاكم حتى لا يبدوا كأنهم صور متحركة.. في تلك الفترة حيث كان يكثر الفساد والنفاق واغتصاب الحقوق والكلمات، كانوا يقبعون في غياهب الجب والسجون، ويمارس عليهم شتى أنواع التنكيل، وكانت حقوق الإنسان لا تتكلم أو تتكلم على استحياء، وكان الإعلام يصيح: عاش! عاش! الملك! وكانت الرموز السياسية المتشدقة بكلمات الحرية والوطنية تنام على سرير من ريش نعام، وتسجد للسلطان وتكلمه بحياء، وشاء الله العلي القدير أن يتسلموا مقاليد الحكم رغم كل المناورات والخدع المصورة والغير مصورة.. فاجتهدوا وأصابوا واخطئوا، وظهر الفساد في الأرض ليقاوم الحق وتكلم كل متكلم وفصيح، بكلمات لا تنم إلا على حقد دفين وكره مقيت، وبذلوا الغالي والرخيص كي يتمكنوا من إفشالهم، وتحولوا من

أبطال المرحلة إلى الجالس في قفص الاتهام، وأصابع الإعلام تلكزه في كل حين، والسياسيون المنافقون لا يتوقفون عن بث السموم في كل مكان.. حتى صاح الذين لا يفقهون، لا للإسلام.. لا لأسلمه الدولة و النظام والرجوع بالدولة المدنية الى عصور غابرة كان يجلس فيها محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه يديرون العالم من حولهم بكل أريحية ونظام.. وهم يملئون الدنيا عدل ومساواة.. فعجبي!



القيامة

انتفض الجسدُ الميت منذ زمان، وانتصب الماردُ بعد رقاد طويل وانكسار وابتسمت الشفاه واشرأبّت الأعناق وجاءت نسائم الحرية ورفرف الحسّون فوق الحقول الخضراء، وزغردت النساء وركض الصغار واكتحلت الصبايا.. ما أجمل نسيم الحرية وما أحسن أنشودة بلادي، أنشودتي التي ما غنيتها منذ مولدي، وكنت اسمعها من جدي وجدتي وكان جدي يرفع ذراعيه إلى السماء وهو يغني، وكان يبكي، وتستمر اللحظات السعيدة ولحظات الأمل والترقب، ترقب الطريق.. ولحظة تغرب فيها الشمس وتغرق في مكان ناء بعيد، حيث يقطن يأجوج ومأجوج، وحيث يرقد ذو القرنين.. فيلبس الليل النهار وينفض عنه كل الأحزان وكل ما اقترف من خطايا وذنوب، في تلك اللحظة التي تموت فيها الشمس ويحيا الليل.. أناجي نسمة جميلة عليلة وروحًا ساكنة في جوف الظلام الحزين الذي يرزح تحت هضاب من جماجم وضلوع.. أناجيك أيتها النفس المطمئنة التي غادرت أجسادًا تكدست وتحطمت من شظايا الحروب.. أيتها الروح الطيبة البريئة التي لم تلوثها يد الزمان، أما آن لك أن تتجلي وتظهري وتحطي، أما آن أن تأتي.. ها أنذا ارقب الطريق الطويل وارقب اللحظات التي تسير ببطء مقيت.. ولم تأتي بعد، ولم تظهري بعد.. فكم من السنوات يجب أن ابكي وكم من

السنوات علي أن أصيح.. لقد بكت العيون حتى جفت وتعبت الحناجر من الكلام، وتشققت الأقدام من الوقوف، فهل صحيح ما يقال، أنك لن تأتي أبداً؟ ولن تبعثي الأمل في كل النفوس؟ وان الحروب وجحافل الخيول الغريبة ستبقى؟ وسيبقى الهرج والمرج؟ وتدق ساعة النهاية؟ وتقوم القيامة؟



صوت الرصاص

حتى الصوت الخافت المتواني.. حتى الهمس، يعلو فوق صوت الرصاص والمدافع، ويعلو الحق ولو بعد حين ويبقى صوت الإنسان يدوي في الأرجاء.. يا نار كوني بردًا وسلامًا على حمص وحماه وسائر بلاد الشام.. تتمزق الأبدان وتهمد الأنفاس وتصعد الأرواح في كل مكان، وتتبعثر الدماء في الشوارع والأزقة وتلطخ الجدران، وتبقى العزة فوق كل شيء، الحرية من العبودية وتكسير الأصنام بفأس إبراهيم.. ويتحدث كبيرهم ويشير إلى المذنبين عابدي العزّى وهُبل ومناة.. حتى الهمس يعلو فوق أزيز الطائرات، يحطم المراوح الكبيرة والدبابات خراطيمها الطويلة، تلفظ الشر والموت، ويطير عزرائيل في السماء وتبكي المدن والحنايا، وتبقى العزة فوق كل شيء.. تختفي الفراشات وتملأ طيور الغراب السماء، ويهرب الناس والأطفال والنساء.. ويسمع الصياح في وسط الضوضاء.. المدافع وغبار الدبابات ودخان الحرائق، وقهقهة المجرمين ودق الطبول.. يهللون ويتبولون في كل شارع.. المفسدون في الأرض.. وصوت همسات المظلومين يعلو فوق صفير الرصاص، وتبقى صرخة الثكلى تزف الشهداء كل يوم، و لم يبقى من الأكفان ما يكفي، ويدفن الشهداء بلا أكفان و لم يبق متسع من مكان، وتبكي القبور من شدة الزحام، و لم يبق من يحفر القبور.. وما أكثر النساء الباكيات في دنيا العرب.. وتبقى العزة فوق كل شيء.. مهما طال الزمان ومهما تكدست

الأحداث يبقى صوت الهمس أعلى من صوت الرصاص المترامي في كل صوب وتبقى الكلمة الحق فوق كل الرايات.. يزول الظلم وتتحطم الأصنام.. إذا جاء نصر الله والفتح.. وتتفتح شقائق النعمان لتبقى دليلًا على الشهداء وتبقى الكلمات حتى الهمسات تعلو هدير الحروب وأزيز الطائرات..



النفس

مرت مرّ الكرام.. عزيزةٌ تأبى الركوع فوق كومة من الضغينة والاحتقار.. نفسٌ ترفعت.. أعاصير من الأيام واللحظات.. الساعات الطوال.. تكفكفُ غيلة أحدى يديها وتبسطُ للوثوب عليها أخرى.. نفسٌ بريئةٌ وجريئةٌ تعيش في دوامة من الالتفاف والتربص.. تولدُ النفس.. تشع بياضاً وتنشرُ الحقائق فوق كل شيء.. تمر اللحظات والساعات فتهوي في خندق الأكاذيب وتتسربل ثوب البغضاء.. تدافع عن نفسها عن كيانها وعن سيف مسلول في وجهها.. كيف لا! ولحظات الزمان تمر مر الكرام لا تهتم ولا تلتفت لأي شيء..



الفراق

في كثير من الأوقات تسير الأمور ليس وفقاً لما نشتهي.. أحيانًا نحب كثيرًا وأحيانًا أخرى نكره كثيرًا، ويبقى القلب يخفق ويخفق حتى الموت.. الدهرُ ذو دول.. والأيام تسير وتتخطى كل العقبات وكل الآهات، مهما كانت صعبة.. و لو كان الأمر بيدينا، لا ادري أيكون الأمر سهل أم صعب.. فلا تكرهوا شيئًا عسى أن يكون خيرًا.. كثيرًا ما كنت أقول أن الحياة تشبه نظرية في الرياضيات وتشبه التموجات الملتقية والمتباعدة.. الحياة فيها كثير من الالتقاء وفيها أيضا ما يعادله من الفراق.. التقاء ثم فراق، وهكذا.. سنة الله في خلقه.. ونحن نكره ونحب، ويخفق قلبنا حيث لا يجب أن يخفق، وتحن أكبادنا حيث لا يجب أن تحن، وكأن لنا يد في هذا أو ذاك.. أعجب من حالنا !

* * *

الغدر

أيها الزائفون، المتخبطون في كل مكان، المترنحون بخطوات يقتلها الشعور بالدونيّة.. ما الذي أوقد فيكم كل هذا البغض الشديد.. أيتها الخفافيش بلون سواد الليل والتي تسعى من خلف الستار، تحك بمخالبها كل جدار، وليس لها سوى العبث بكل الأقدار.. لا تهدف إلى شيء سوى الخراب والدمار.. عيون يملأها الحقد البغيض وترسل بريق خداع وبغضاء.. أيتها الخفافيش السوداء أو الحمراء أو الصفراء، أي لون أنت، لا يهم.. فأنت مثل الحرباء، كل يوم أنت في لون.. اظهري حتى أعرفك، حتى لا تكوني من الجبناء، أفصحي عن تلك الرغبة العمياء في حقن السموم في كل الأجساد، أيتها الشخصيات الزائفة الورقية.. ما كل هذا الهراء.. انك تتمرغين في الطين ويشطفك رذاذ من الكراهية واللامبالاة.. ويحك! أتحسبين انك تفعلين الصواب؟ وأنت ترمين الحجارة في كل صوب.. وأنت تتشبثين بحبال بالية، حبال الحقد والحسد.. كيف لا؟ وأنت تتهمين كل الأبرياء وفي ساعات الليل المتأخرة تبعثرين كل الأوراق، وتدسين الرسائل وتكتبين وتشتكين.. أيها الزائفون، المتغطرسون، المتشدقون، المهلوسون! انتم كما قال درويش، أيها العابرون بين الكلمات العابرة.. فانتم عابرون وستمر السنون عليكم مر الكرام ولن تتركوا آثاركم في رمل الحياة.. كل صيحاتكم تدوي في الفراغ، صداها يعود عليكم باللعنة والدونية، أيها الزائفون اعلموا أنكم زائفون، ستبقون زائفين ولن تظهروا، كخفافيش الليل تعمل في الظلام، فهذا ما تستحقون.

* * *

الشيزوفرينيا

في كثير من اللحظات تتهاوى فيها العقول وتنساب فيها المشاعر لتستسلم الجوارح وتنقاد النفس إلى ما لا تفهمه وما لا تعيه، إلى حيث تكثر الأشباح بلا صورة ولا صوت ولا طعم.. تحركُ في النفس كل الطاقات وتغرسُ فيها كل الشحنات تدورُ وتصعدُ في السماء وتدورُ ولا تقف حتى تستكين.. تتحرك الساكنات من حولها وتضحك الجمادات وتهمس إليها بكلمات وتكلمها الكائنات.. ومضات من ملامح غريبة تشعها في النفس فلا تعلم ما تفعل وما تقول.. يختلطُ كل شيء فيصبح الخطأ صواب والصواب خطأ وتُغلقُ الدوائر، فيتهامس من حولها ويضحك الضاحكون ويغمز الغمازون، فتنكمش وتستحي وتخجل من نفسها، فلا تعلم أي الفريقين ترى وأي منهم واقع وأيهم الخيال، فتنطلق لتنزوي في مكان مظلم حالك السواد، لا يراها فيه انسٌ ولا جان.. ويقرأُ الشيخُ سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران.. وبسم الله الرحمن الرحيم، مسٌ من الجن، سحرةُ موسى.. ويبتسمُ الشيخُ.. لابد انه قد اختفى وصُفّد في الأغلال ولن يعود، وما زال الحال هو الحال.. الواقع خيال والخيال واقع وما زالت الأنفاس تلهث وتبكي العيون وتنهمر العبرات.. جنون.. وهم أم خيال، لا عقل ولا إحساس.. ويضحك الضاحكون ويغمزُ الغمازون، فتنكمشُ النفسُ وتنحصرُ وتتقوقعُ في مكان مظلم حتى لا يراها احد حتى لا يُقال أُصيبت بالجنون.. وتدوي الصرخات فيسيطرُ الخيالُ على الواقع فتضيع ويضيع من حولها، وتهوي في مكان عميق مخيف، ويبكي الباكون

ويندهشُ المستهزئون ويعاقب المعاقبون.. اقتلوا الشيطان واقتلوا الشر في العيون.. وتكثر التساؤلات وتتوقف الضحكات.. جنون وترهات تشعها النفوس في كل مكان.. فيختلط الآن والمكان وتكثر التساؤلات.. لحظة من جنون النفس.. لحظة من جنون..



حنين

تدنو الشمس من المغيب ويختلط اللون الأرجواني بالسواد، وأصواتُ الأهازيج تعلو في كل مكان.. عن نفسها وعن حياتها حدثتني.. وعن علقم الدهر وغدر الزمان، وعن سيف مسلول في وجهها، ترهات تشعها النفوس، فكيف لا ابغض الناس؟ وكيف لا اكره الكائنات؟ دوي يخلخل العظم ويحبس الأنفاس.. أيتها الساكنةُ في كل مكان والمتأبطةُ كل زمان وأيتها الزهرة المتلفعة لون البياض، تهمسين وفي همساتك لحن حزين، فيطرق الفؤاد لتلك المعاني المتناثرة وتلك الحروف الراقصة ويصغي لعزف أنفاسك ووقع لحظاتك، صفعات من الحياة تلطم الكيان فتدوي عبر مسامعي.. تترنحين في كل مكان وتطردي كل القلوب وتكشرين عن أسنانك الجميلة وتشيحين بأظافرك وفي عينيك الجميلتين شهب وضياء، وفي طواياك يخفق قلب جميل وشفاه تهمس بلحن أصيل، حنينٌ يعتصر القلب، آتي من بعيد، من عمق الحكايات وأساطير الأولين، أيتها الزهرة البيضاء اهمسي لكل الكائنات فشفاهك الجميلة تصدر أحلى الكلمات..



الجنية

كنت حينها انظر إلى فنجاني القهوة، في ساعات الصباح، احتسي منه رشفة ثم أتمعن في نفسي وبعد لحظات احتسي رشفة أخري.. بصراحة أنا مغرم بالقهوة وخاصة في ساعات الصباح الباكر، أحبُ أن انفخ في الفنجان أولاً ثم انظرُ إليه برهةً وأتمعنُ فيه وفي لون القهوة وهي تتموج وتلمعُ كما يلمع النحاس.. هذه عادتي لا بد أن انفخ في الفنجان أولًا، وان لم افعل اشعرُ بتوتر شديد.. وسواسٌ قهريٌ.. هه! وبينما أنا على تلك الحالة وإذ بعفريته تتنطط فوق رأسي، لم أرَها ولكنها كانت تقفز في كل مكان، جنية! وكانت تضحك وهي تداعبني بأصابعها التي لم أرها، وكأني اسمعها واشعر بها وهي تلمسني، تستور اسم الله الرحمن الرحيم.. قل أعوذ برب الفلق.. جنية! عفريتة! فقالت لي، أريد رشفة من القهوة، أريد قهوة! هكذا أخذت تصيح وهي تضحك وتقهقه، فخبأت فنجاني وانكمشت، ثم قمتُ انفُضها من على جسدي ومن رأسي.. قل أعوذ برب الفلق.. قل أعوذ برب الفلق.. وهي ما زالت تضحك وتضحك، وتارة تغمزني وتارة أخرى تهمس في أذني.. قشعريرة أصابت جسدي، وخلتُ نفسي احدث نفسي.. الغريب أن صوتها جميل.. ولكنها جنية! عفريتة! يا ساتر يا رب! قفزتُ من مكاني واقفًا فانسكبَ فنجاني على قميصي وصرختُ بأعلى صوتي من سخونة القهوة.. وإذ بي كنت قد غفيتُ للحظة، فحلمتُ و لم أفق إلا على لسع القهوة الحارة.. أوف! لسع القهوة ولا الجنية!

***

شجرة الغولة

قصتي جميلةٌ، قصةٌ خياليةٌ، قد أكون نسجتُها من خيوط أفكاري.. أو قد سمعتُها وأنا في بطن أمي، واذكر كلماتها وألحانها وكل ما تحتويها من عواطف وانفعالات.. كنا نركضُ في الخلاء وكانت البيوت قليلة وكانت الأسماء غير الأسماء وكانت الأماكن مهجورة والتلال كثيرة، والشوارع ضيقة وكانت قريتي صغيرة ولكنها جميلة.. نعدو ونتسابق فنسبق الرياح في السهول ونسبق الفراشات في الحقول الصفراء اليابسة من القمح العتيق، يملأها التراب.. وأقدامنا حافية و لم نكن نشعر بحرارة الأرض ولا بوخز الأشواك.. كنا نطير مسرعين ونحلق في الهواء فلا تلامس أقدامنا التراب، وكنا نجلسُ في ساعة الغروب وكانت أمي تكنسُ ساحة البيت وأبي يأتي ساعة الغروب.. كنا نستمعُ لحديث الكبار وهمس الصبايا والنساء، وكانت قريتنا صغيرة قليلة البيوت ضيقة الشوارع، فنسمع من بعيد نباح الكلاب وصياح الديوك وثغاء الخراف، وابتسامة أمي جميلة وشالها الأبيض الجميل وسنها الذهبي ينير المكان.. وفي ساعات الغروب والسماء تقتربُ من الأرض والنجوم ضياء.. نسمعُ حكاية شجرة ''الغولة''.. ماتَ من مات فدفنوه تحتها.. فترتعدُ أوصالنا وتهبُ النسمات الباردة وهمسات آتية من لجج الصمت،

وهدوء ثقيل يربض على الأنفاس ويدق القلبُ وترتعش العيون.. نرقبُ شجرة ''الغولة'' في المساء فنراها تمتدُ إلى السماء وتبرزُ اذرعها فتعانقُ النجوم ونرى خرطومها يتدلى إلى الأرض، فننكمش إلى حد الاختفاء ونأكلُ أظفارنا بأسناننا.. وتقشعرُ الأبدان.. فتونسنا ضحكة أبي وهمسة أمي، فننام إلى الصباح.. وعندما كبرنا وكبرت شجرة ''الغولة'' في عقولنا، وإذ بها شجرة ''سدر'' جميلة تمتد جذورها في باطن الأرض وأغصانها في السماء.. يستظل بها الناس وتأكل منها العصافير.. شجرة ''الغولة''..



عذب كلمات

ايتها الجميلة الوديعة، ذات الانف الصغير الجميل والعينين الرائعتين، التي تملأها البراءة، ملامحُ الطفولة في وجهك تقتلني، وجمالُ المرأة في وجنتيك يشدني، يطيرُ بي الى حيث لا ادري، الى حيث تتعانق النجوم ويعشقُ القمرُ السماء، وضحكتك تجعلني افقد الجاذبية وأطير، فامشي فوق السحاب، حنانك جميل ولهفتك تقطع الانفاس.. تأخذيني الى اللامكان، حيث اللاحدود والخيال.. نطيرُ ونضحكُ ضحك طفلين معًا، ونعدوا وتسبقيني، وعلى شاطئ البحر نهيمُ .. فتداعبي نسماته وتداعبك الامواج بلطف.. وترقص امواج البحر طربًا، وأسنانك البيض الجميله، ولهثات انفاسك، وتناثر قطرات الماء على خدك المحمر خجلًا، يرسمُ صورة وردية، يحسدها غروب الشمس، وتحسدها العصافير.. ابتسمي واضحكي وداعبي الكواكب البعيدة، فقلبك خُلق ليكون سعيدًا.. ايتها الجميلة الوديعة..

***

كان يا مكان

في ذلك الزمان.. منذ زمان، كانت البيوت غير البيوت والوجوه غير الوجوه.. وكانت الضحكات غير الضحكات، ضحكات من اعماق القلوب، تكاد تتناثر الاسنان من الضحكات القديمة، حيث البيت القديم والشارع القديم.. عندما كانت امي تحمل على ظهرها كوم الغسيل، وفي يدها تحملني، وفي بطنها اخي يتحرك متشوقًا للخروج، كنتُ املك كل الوجود، وفي يدي مفاتيح الحياة، وبعصاي السحرية الخيالية افعل ما اريد.. أشق أي بحر أريد.. حينما كنت صغيرًا كانت الفرحه تطول وتطول، كنت ارقص كثيرًا واركض حافيًا وقهقهاتي تدوي في الفضاء.. واليوم لا استطيع ان اركض حافيًا او ارقص.. فهذا عيب! وممنوع! وابتسامتي قليله.. كم احب ان اعود الى تلك الاودية وتلك الاراضي الخالية الممتدة حد الافق اللامتناهي.. يا لتلك الرائحة العبقة، رائحة التراب والطين.. اركض وانا متسخًا والتراب يملأ راسي ووجهي، واسقطُ على الارض ويتمرغ انفي في التراب وابدو كالشيطان فيضحكوا علي، اشعثٌ اغبر.. وامي تركضُ خلفي ودلوها معها، وهي تمسك ثوبها باسنانها، يا لها من لحظات! ويا لها من ساعات! زمان !

* * *

ابتسامة

ما الذي أوقد كل هذا الجموح من الإحساس؟ مشاعر كموج البحر أرخت سدولها عليّ.. تساؤلات حيرتني ودارت بي الدنيا واختلط الأمر، تبتسمي ومن ثغرك يضوع الطيب فيرتجف الفؤاد ويستريب وتتهاوى اللحظات فتتسارع الساعات، فيهبطُ السحاب وتفترشه الخضر العصافير الصغار، وامشي الهوينة كما يمشي الوجي الوحل.. يا لتلك الهنيهات التي تحتبس فيها الأنفاس وتلهث فيها القلوب، فتختفي الأحزان وتتلاشى الهموم.. وعلى ضفة نهر جميل اركض بأقصى سرعتي.. أسابق الريح والعصافير، وطائرات الورق، واتحدَّ الأمواج والرمال..

وما زالت تبتسم، وما زال يضوع الطيب، فيرتجف الفؤاد ويستريب..



اكتب في راس الصفحة

ريمٌ فاتنٌ أشار عليّ بلحظ من لحاظه الجميلة.. أن اكتب في رأس الصفحة الأولى، اسمي وكل ما يجول في خاطري.. اكتب بكلماتك جسدي وعقلي، اكتب اني اكره أن يشاركني احد سواي في فلاتي، فانا وحدي لا سواي.. تغطرستْ وعلتْ وتمكنتْ.. أشارتْ عليّ بإصبعها الجميل، احذف كل الألوان وكل الزهور، فلا رمادي ولا بنفسجي ولا وردي، فقط لوني أنا.. يا لتلك الابتسامة! من خلف الستار، من خلف الجدران.. جرءة وقوة.. اكتب في رأس الصفحة الأولى أني لا أحب ولا أعشق، أني لا اكره ولا امقت.. اكتب في السطر الأول من صفحتك البيضاء، أني لا اهتم لمشاعري ولا يحق لأحد أن يهتم بها.. وستكتب رغمًا عن انفك، أني لا أهوى احد ولا احنُ إلى احد، والملم مشاعري وخفقات قلبي ولهثات فؤادي بين أناملي، واضعها تحت وسادتي، فلا تراها سوى عيني.. اكتب في رأس الصفحة الأولى انك لن تراني، ولن تلمسني.. إلا في أحلامك.. أبت إلا أن تشرئب لها العيون.. أبت إلا أن تجلس في حجري وترفس كل من يقترب..



أمي

أيها الصوت اللائج في أرجائي والآتي من كنف السكون.. منذ التقيتك والتقيتني لولبتني أطيافٌ مشبعةٌ بالسرور وأيقظتني من نومي ابتسامتك الساحرة وراودتني شذراتٌ من الماضي توزعت رذاذً كرذاذِ اليَم يجلبُ رائحةً طيبةً فواحةً..

وعبر الوقت والزمان تتمازجني ليالي السهر وتطويني في جنباتها كطي السجل ويعلو القمر المتباعد يوم بيوم تاركًا مكانًا يعجُ بذكريات من الماضي ورفرفة طير يعوج على الدار يسائلها.. فهل للشمس ان تظهر لنلتقي من جديد؟ وهل ستعود الحياة لذلك الوجه الجميل؟ وهل يعود الحلم؟ هل للماء ان ينقطع عن الخرير في أذني، لأسمع صوت الأنفاس الدافئة المتقطعة.. احن إلى العيد وقبلة العيد، وبسمة العيد وسلام العيد.. سلام لكَ أمي من بعيد..

* * *

عاشقة المطر

يومٌ من ايام الشتاء.. والجو ساكن، الا من صوت عواء كلب بعيد وصياح ديك.. والشمس تنحني نحو المغيب، تطرز صورةً بهيةً.. واجلس في غرفتي اكتب قصيدةً شعريةً، ومن خلف زجاج شباكي الرث، ارقبُ الضياء الخافتة، التي ارتمت على ارصفة الشارع، فانعكست لمعتها على المطر.. وكان الظلام يغطي المكان واعمدة الضياء ترتعش من البرد وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال وورقة من تين تتطاير وتتقلب بين انامل النسمات، تنقلها الى حيث لا تريد، ومصابيح الشارع القديمة تضيء على استحياء، وتبعث الضياء جاهدة فلا تستطيع الا ان تضيء نفسها ورشات المطر، وتحضرني في تلك اللحظات الهادئة البطيئة عاشقة المطر.. كانت تقف تحت زخات المطر ولا تخشى البلل.. تعانق القطرات وتحتضن الغيوم في السماء، وترقص ضاربة بقدميها كل المياه.. متوشحة ردائها الاسود الطويل، وحبات المطر تتراقص على وجنتيها، ويداعب الهواء رداء رأسها، فيخفي خلفه ابتسامة جميلة.. تقف بمعطفها الانيق وتداعب المطر باناملها الرشيقة، ولا تزال الابتسامة ترتسم على شفتيها.. عاشقة المطر تقطن خلف الجبال البعيدة، حيث تنحني الشمس، ويسكن النهار.. في مكان بعيد.. وعلى صوت وقع المطر، اصحو من ذاكرتي، فانظر الى ورقة التين، تتقلب مع تقلب النسمات وتهدأ مع هدوء الليل الساكن، الا من عواء كلب بعيد وصياح ديك.. ولا تزال اعمدة الشارع تتمايل ذات اليمين وذات الشمال.

* * *

مدرستي

كان يوم جميل، والطقس لطيف والسماء صافية، والربيع يغطي ملامح الارض.. وكنت أسير الى مدرستي بقميصي الازرق الذي يميل الى البياض، وفوق ظهري احمل حقيبتي.. وكان الاطفال جميعهم يسيرون الى حيث أسير، وكنت انتظر اصدقائي عند الوادي الصغير الذي اختفى منذ أمدٍ بعيد، الا اني اراه في مخيلتي حتى هذه الساعة.. كنا نجتمعُ ونسيرُ مهرولين الى المدرسة.. وابو العال، ذلك العجوز الذي افتقدته منذ زمان، يقوم ومعه الجرس الحديدي ويدق به معلناً ساعة الانتظام في الساحة الكبيرة.. وكنا نقف مصطفين كاسراب الطيور المهاجره، نؤدي حركات رياضيه غريبة.. انتظم، اسبل، استعد، استرح، وهكذا.. يقولون ان هذه التمارين تساعدنا على فهم الدروس بصورة افضل.. لا اعلم كيف؟ ولكن قد يكون! ثم بعد ذلك نسيرُ بسروب منتظمة الى الصفوف.. ونجلس في الصف ويدخل المعلم..



فرحة تلميذ

كنتُ في أحد الأيام مع أبي وأمي وإخوتي في رحلةٍ عائليةٍ، وبينما نحنُ نلعبُ ونركضُ تعثرت قدماي فسقطتُ على حجرٍ كبيرٍ، فجرحتُ كتفي.. كان جرحي عميقًا وكبيرًا.. هذا ما رأيته في ملامح أبي وهو يتفحصني، لقد ارتعب عندما رأى الجرح وكذلك أمي.. قال لامي لا بد من المستشفى، فأمسكت أمي بجرحي واحتضنتني وساق أبي مسرعًا إلى المستشفى.. لقد أرعبني خوفهم.. وفي الحقيقة، في حينها لم اشعر بالألم بعد، ولكني عندما وصلتُ المستشفى شعرتُ بألمٍ شديدٍ في كتفي ورأسي وعنقي.. وقد خاط الطبيب جرحي وأطلقوا سراحي بعد كثير من الفحوصات.. عدتُ إلى البيت ويا للمفاجأة.. لقد جاءوا جميعا ليطمئنوا عليّ، كلهم كانوا يقولون لي الحمد لله على سلامتك.. مسكين كيف حدث هذا.. ويمسحون بأيديهم على رأسي.. كم كنت سعيداً بهذا الأمر.. أصدقائي في الحارة تجمعوا من حولي.. جاءت نساء الحارة لتطمئن علي، واشترى لي أبي كل ما أريد وكانت أمي تبدل ملابسي.. كنت سعيدًا جدًّا.. يا لسعادتي! وأفضل ما في الأمر أني معفى من الذهاب إلى المدرسة، كلهم يذهبون إليها إلا أنا، فأنا مصاب وجرحي مخيط.. وفي خضمّ سعادتي هذه تذكرت أبناء صفي، لقد اشتقتُ اليهم.. لماذا لم يأتون لزيارتي؟ لعلهم مشغولون بحل الوظائف.. وسارت الأيام، وشفي الجرح وآن أوان العودة إلى المدرسة.. بصراحة اشتقتُ

إليها، واشتقتُ إلى كل من فيها.. وفي الصباح لبستُ ملابسي وتهيأتُ للذهاب إليها، و قلتُ في نفسي سيستقبلونني بسعادة وسأحكي لهم حكايتي، وانتظرتُ هذه اللحظة، وجاءت معلمة الدين.. كانت متجهمة على غير عادتها، فقلتُ في نفسي ستسألني عن حكايتي وسأسردها لها كلها، وقد شعرتُ بسعادة كبيرة وانتظرتُ السؤال.. و لم تسألني.. توجهت إلي دونما ابتسام وقالت لي:

- أين الوظيفة؟

فقلت لها:

- أي وظيفة؟ كنتُ غائبًا..

فاستشاطت غضبًا.. وأمسكت بمسطرتها.. وأشاحت بها في وجهي.. وضربتني دونما سؤال..

فسقطت دمعةٌ من عيني وجلستُ دونما حراك.. وهبطتْ سكينةٌ على المكان..

* * *

موقف في سوق

حدثني احدهم، انه ذهبَ إلى السوقِ يومًا، وقال لي، بينما أنا هناك، رأيتُ في زاويةٍ من زوايا السوق، حيثُ الحمير والبغال وجموع الناس، عجوز عابسًا متجهمًا من الحياة وحماره خلفه ينظر يمينًا ويسارًا ، وكثيرٌ من الحمير والبغال تقف خلف أصحابها لا تفعل سوى أنها تقف مشدوهة تنظر إلى المارة وهم يروحون ويغدون مطأطئي الرؤوس.. كان العجوز واقفًا يحك بيده قفاه، يستمع إلى صوت بائع الجزر، وهو يلوّح بيديه في الفضاء وكأنه يغرق ويطلب النجدة.. يصيح بلا هوادة وصوته يرتفع في وسط ضوضاء السوق:

- جزر! جزر! تعالوا على الجزر! يا بلاش! بس بقروش بتعبّي كرشك.. تسعد نهارك.. جزر! جزر! يا سلام.. تعال ذوق ببلاش! هاي! أنت! نعم أنت.. يا بركه! اشترِ.. تعال..

وكان يشير بإصبعه إلى ذاك العجوز.. عندما سمع العجوز هذا النداء ابتسم ورفع يده من قفاه وقام متجهًا إليه وقال له بصوتٍ خافت:

- بكم الكيلو؟

فرد البائع بصوت غليظ:

- خليك من السعر وتعال ذوق.. خذ هذه الجزرة لك.. حلوة! خذ! كل ببلاش!

فمد العجوز يده المرتعشة إلى الجزرة وأخذها وهو يتمتم:

– نعم.. نعم.. شكرًا.. اواه.. ممم.. حلوه.. طيبة.. ممم..

وأكمل البائع يقول:

– ها! يا بركه! .. يا جزر! يا جزر! تعالوا اشتروا!! ببلاش.. ها! أملأ لك هذا الكيس..

فتنحنح العجوز وقال:

– طيب.. طيب.. بس بكم الكيلو؟

– بعشرة دراهم يا طيب.. فقط..

– بعشرة دراهم! ايش! بعدين.. تأخرت سأشتري بعدين.. تأخرت.. واختفى العجوز..

– هاي! أنت! أين ذهبت؟ يالك من وقح! يالك من لعين! ادفع حق ما أكلت! هاي! هاي! أين ذهبت أيها الشيطان؟! اللعنة لقد اختفى..

وراح يصرخُ بائع الجزر مرة أخرى، وصوته الأجشّ يختلط بصوت باعة اللحم والسمك والخضار والفاكهة والبخور.. وفي السوق تفوح مختلف الروائح، فتختلط رائحة اللحم والسمك برائحة البخور والعطور وروائح العرق وازدحام الناس، والكل في حركة وجلبة ترى فيهم الفرح والتعيس والساخط والصبور والفائق والنائم.. خليطٌ من البشر يروح ويغدو ويسمع صهيل الخيول ونهيق الحمير وأزيز الزحام..

* * *

آمنت بالله العظيم

كان الطقس شديد الحرارة والصخور تكاد تنفجر من شدة الجفاف، رغم اقتراب الشمس من المغيب.. وفي جانب من وادي شاسع يلتوي بين هضاب الصحراء يقبع شيخ بدوي وزوجته في خيمة صغيرة.. ومع سكون الصحراء القاتل يسمع صدى صوت الشيخ وهو يكلم زوجته:

- عايشة! عايشة! يا عايشة! أين أنت؟ لماذا لا تردين؟

فترد عليه زوجته بصوت أبح مكتوم صادر لا من حلقها بل من أعماق بطنها:

- آه.. آه.. ايوه.. ماذا تريد؟ ألا تنتظر بعض الوقت يا أبا عمر! ألا تراني اغسل سروالك اللعين هذا.. ها!

فاستطرد أبو عمر وهو يرتعش كالمحموم:

- اتركي ما بيدك وتعالي.. ابحثي معي عن المقص! الله يلعن الشيطان! الله يلعن الشيطان! لقد وضعته اليوم في الصباح تحت الوسادة اللعينة.. أوف! الله يلعن إبليس!

فدمدمت الزوجة وهي تنهض من مكانها تتمتم بصوت خافت وكأنها تكلم نفسها:

- يا لك من أحمق! لعين! لا أكسب من ورائك سوى الهم والتعب.. ها هو! ها هو! مقصك المشئوم! ألا ترى؟

فصمت أبو عمر ثم تنحنح وتحرك من مكانه وقال:

- آه.. نعم.. ها هو المقص.. آمنت بالله العظيم.. آمنت بالله العظيم..

وغابت الشمس، واكتست الصحراء بلون السواد، وسكن الكون وهدأت الصخور وسكنت الطيور ورقد أبو عمر وزوجته عائشة تحت لحافهما في خيمتهما ينتظران بزوغ الفجر..

* * *

سويلم

ساعة الظهر.. يوم شديد الجفاف، وسويلم يجلس وبين أنامله المتجعدة الخشنة حبل طويل يجدله بقوة والعرق يندس من جبينه، وعيناه محمرتان من شدة الحرارة وفوق رأسه منديل كان ابيض اللون.. سويلم، هو رجل في الستين من عمره، شديد النشاط، يعمل بكد ويحتمل ما لا يحتمله الرجال الشداد.. لا يملك في هذا الكون سوى زوجته فضية وحماره "عنتر" وبعض الدجاجات، ولم ينجب أطفالاً، وكان ذا وجه عبوس شديد البؤس، قليل الابتسام.. يجمع الحطب ويبيعه في السوق، يحمله على ظهر حماره "عنتر" ويبيعه ويقبض ثمنًا بخسًا دراهم معدودة.. فضية زوجته في الخامسة والخمسين من عمرها، وهي عجوز صعبة المراس قليلة الابتسام كثيرة التجاعيد في وجهها.. لا تسكن إلا إذا سكنت الشمس، كثيرة الحركة، تغسل وتكنس وتطبخ وتشعل النار.. وتنتظر زوجها كل مساء ليحضر ومعه ما كسب من مال قليل فينفقونه على أكلهم.. هكذا هي حياتهم لا تحيد عن هذا المسار، منذ أكثر من ثلاثة عقود.. يقطنون في الوادي النائي هذا، الذي يبعد عن اي تجمع بشري أكثر من عدة أميال..

انتهى سويلم من جدل حبله وربط الحمار وأوثق رباطه، وقال لزوجته بصوت خافت:

- ادعي لي يا مستورة.. عسى الله أن يرزقني رزقاً طيبًا مبارك فيه.. لقد أصبحتْ الحال صعبة.. لا تطاق..

فتأوهت فضية:

- لا تقلق.. توكل على الله..

فتمتم سويلم:

- يا شديد! يا قوي! الله والنبي واصحابه..

وسار متجها إلى القرية.. ورأسه بين كتفيه وقد بانت انحناءة ظهره وخطواته المائلة.. وكانت فضية تنظر إليه وفي مقلتيها المترهلتين تجمع دمع كثير..

* * *

وظيفة الحساب

كنت حينها في الثامنة من عمري وكنت اذهب إلى المدرسة مع أقراني.. أهرولُ في ساعات الصبح الباكرة أسابق الفراشة الجميلة.. كانت الفراشة ترفرف بجناحيها من حولي حرة طليقة.. سعيدة كل السعادة.. فهي لم تذهب في حياتها إلى المدرسة و لم تكن تجلس الساعات الطوال لحل الوظائف البيتيه... وليس لها معلم يعاقبها، إن هي لم تحل الوظيفة.. لا احد يقول لها افعلي هذا أو ذاك، بل لها أن تفعل ما تشاء.. ثم نفترق واذهب في سبيلي، وأصل إلى المدرسة فادخل الصف ويبدأ الدرس الأول فالثاني فالثالث وهكذا.. وما أن يدق الجرسُ معلنًا نهاية الدرس الأخير، حتى أطُير فرحًا.. وكان قلبي يرقص متهللًا وتعلو وجهي الاشراقة.. وعندما أصل إلى البيت، كانت أمي تتلقاني بصوتها الحازم.. الوظائف البيتيه.. اللعنة على الوظائف البيتيه! فلتخطف الشياطين كل الوظائف البيتيه! اذكر ذلك اليوم الذي أعطاني فيه معلمُ الحساب وظيفة بيتيه طويلة ومعقدة.. بصراحة لم افهمها ولا ادري كيف هوَ يفهمها.. ولكن لا مفر.. إلى معلم الحساب المستقر.. من لا يحل الوظيفة يضربه ضربًا مبرحًا.. أو على الأقل يصرخ فيه صرخة تخلخل العظم.. كنتُ أخاف منه كثيرًا وكنتُ أداوم على حل الوظائف كلها.. كيف لا وأنا أراه كل يوم يسخط من لا يحل.. وفي ذلك اليوم أخذت كتاب الحساب وتوجهت إلى أبي علّه ينجدني من هذه الورطة.. فتمعن أبي في الكتاب ثم نظر ثم

عبس وبسر.. وتغير لون وجهه وتنحنح ثم تحرك من مكانه مرتين.. عرفتُ انه يجد صعوبة بالغة في فهم المسألة.. فقال لي وهو يحرك حاجبيه:

– ما هذا الكتاب؟ كيف تتعلمون هذه الأشياء؟ أنا لا افهم شيئًا منه على الإطلاق..

ثم أعطاني إياه وقال:

– اذهب إلى أمك ستشرح لك المسألة أفضل مني..

فعرفت حينها أني لن أجد حلًا.. ولم استطع حل الوظيفة المعقدة.. ونمتُ من ليلتها خائفًا مرتعدًا من ذلك المعلم.. غداً سيسخطني لا محال.. وحلمتُ في نومي أني اركضُ في وادٍ طويل وملتوي وكان معلم الحساب يركضُ خلفي وفي يده عصاة غليظة يلوح بها.. والغريب في الأمر انه كان على صورة حمار ضخم.. له أذنان طويلتان وانف مدبب.. كاد أن يفتك بي لولا أني أفقتُ من نومي.. وذهبتُ إلى المدرسة.. ودخلتُ الصف لا اكلم أحدًا.. كل ما يجول في خاطري تلك الوظيفة البيتيه التي لم أحلها.. فانا اليوم هالك لا محال! ودخل معلمُ الحساب.. ذلك المعلم الضخم ذو الفكين الكبيرين.. عيناه جاحظتان وانفه طويل معقوف وكرشه مدلّاة فوق حزامه.. دخل إلى الصف وصوت هدير أنفاسه يسمع من بعيد.. جلس على الكرسي واخذ ينظر في يوميات الصف.. ثم عطس فتطاير رذاذ عطاسه في أرجاء الغرفة.. ومسح بكم قميصه ما تتطاير على شفتيه من سوائل.. ونظر إلينا وتنحنح وقال:

– يا الله! توكلتُ على الله! وقام من مكانه بعنف واستطرد.. الوظيفة! تفتيش! فارتعدتُ حينها.. وأصابني الذهول وانتظرتُ مصيري المحتوم.. وبينما أنا على

هذه الحال احبسُ أنفاسي بصعوبة.. وإذا بمدير المدرسة يدخلُ إلى الصف دون استئذان.. كان مبتسمًا وبرفقة شخص آخر.. يحملُ حقيبة سوداء كبيرة.. صامتًا لا يتكلم.. قال المدير بصوت هادئ:

- السلام عليكم يا شطار!

فرددنا عليه بصوت واحد:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!

ثم نظر إلى المعلم الذي وقف متسمّرًا دون حراك وقد ارتسمت على شفتيه المنتفختين ابتسامة صفراء..

فأكمل المدير:

- أقدم لكم المفتش.. سوف يحضر عندكم الدرس..

ثم عاود ينظر إلى المعلم وكأنه يقول له:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

وجلس المفتش في الصف وذهب المدير.. وتنحنح معلمُ الحساب ودب فيه النشاط.. وبكلمات يملؤها اللطف والحنان قال لنا:

- والآن يا شطار! تعالوا بنا نتعلم درس القسمة على اثنين..

وراح يشرح الدرس وهو سعيدًا مبتسمًا والمرح يملأ روحه.. والغريب في الأمر أننا تعلمنا هذا الدرس قبل يومين.. هذا لا يهم! ما يهمني أنه لن يفتش على الوظيفة.. والمهم أني نجوت والحمد لله.. الحمد لله الذي استجاب لدعائي.. وعادت ابتسامتي وأخذتُ اردِدُ مع الصف ما يقوله معلم الحساب..

***

اللحظات المهمة

أدهشني أن اسمع هذه المقولة:"كثيرٌ هم السائرون على الدرب، ولكن قليلٌ هم التاركون آثارَهم عليها".. ترى! ما هي اللحظات المؤثرة في حياتنا؟ والتي قد لا نلقي لها بالًا... هل هذه اللحظات موجودة فعلًا؟

نعم لكلٍ منا لحظات جميلة.. لحظات مؤثرة.. لحظات من السعادة.. وأحياناً تكون لحظات من الحزن.. تبقى خالدة في ذاكرتنا.. لقد سمعتُ قصة جميلة تتحدث عن تلك اللحظات التي نمر بها دون أن نتمعن فيها.. والتي قد يكون لها اثر كبير في شخصيتنا وحياتنا.. ها كم هذه القصة:

يحكى أن احد الجوالة كان يسير في دولة ما من دول العالم.. وكان يتمتع بمشاهدة الطبيعة الخلاقة، والشوارع الواسعة والبنايات المرتفعة.. وبينما هو على هذه الحالة وصل إلى منقطة غريبة.. مقبرة كبيرة.. قبورها بيضاء وأسوارها خضراء.. يا الهي! انه مشهد جميل رغم الحزن الذي يكتنف المكان.. الغريب في الأمر أنها مقبرة أطفال.. كل القبور مكتوب عليها أعمار قصيرة جداً.. خمس أعوام.. ثلاث أعوام.. عام.. أشهر.. أيام.. أمر غريب! كثيرٌ هم الأطفال الذين يموتون في هذه القرية.. وسار الجوال في أرجاء المنطقة.. ثم رأى مشهدا آخر شديد الغرابة.. الناس في هذه القرية يحملون في أعناقهم دفاتر صغيرة.. وكانوا يقفون بين الحين والآخر ليدونوا شيء ما في هذه الدفاتر.. هكذا كانت أحوالهم

جميعًا.. واستمر الجوال يسير ويسير وهو مندهش مما يراه، حتى وصل إلى مقهى صغير فجلس ليرتاح.. ورآه صاحب المقهى وعلم ما به من دهشة.. فتوجه إليه وسأله عن حاله.. فأجاب الجوال:

– لقد أدهشتني هذه المنطقة.. مقبرتها مليئة بالأطفال الصغار.. لا ادري لماذا يموت الناس في هذا المكان صغار؟ وما يدهشني أيضا تلك الدفاتر المعلقة في أعناق الناس.. ماذا يدونون فيها؟.. فابتسم صاحب المقهى وقال:

– اما بالنسبة للدفاتر، فتلك دفاتر ندون فيها اللحظات الهامة في حياتنا.. كلما مرت بنا لحظة مهمة ندونها.. وهكذا حتى إذا ما مات الشخص.. جمعنا اللحظات الهامة التي دونها في دفتره.. فكانت سنوات أو أشهر أو ساعات.. لأننا نعتقد أن عمر الإنسان يقاس بلحظاته الهامة والتي أثرت في نفسه وفي غيره وفي حياته.. فابتسم الجوال وطأطأ رأسه يفكر..

نعم.. هذه القصة معبرة وجميلة.. تُرى هل نملك نحن تلك الدفاتر؟

* * *

الدرويش

في ساعات الليل المتأخرة والناسُ نيام.. نجومٌ تودع السماء وظلمةٌ دامسة كأنها سرمدية تحيط بالمكان.. ضبابٌ كثيف هبط على الطرقات والأزقة.. وبيت يكتنفه الظلام من كل صوب يسطع منه ضوء خافت يعكس ظل امرأتين تجلسان حوله.. ظلّا يرتجف مع ارتجاف الضوء.. ومن بعيد يسمع في الفضاء الواسع صدى صوت إحداهن تشكو للأخرى وتبوح بهمها.. صدى يملأه الحزن والأسى:

- ماذا افعل؟ ماذا عساني أن افعل؟ ترى! لقد بحثتُ عن كل شيء وفعلتُ كل شيء.. شربتُ كل أصناف الأدوية وتجرعتُ كل ما وصفوه لي من مرٍ وعلقمٍ.. ولكني عبثًا حاولت.. لم ينفع شيء.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ماذا افعل؟

فيرتد إليها صدى صوت آخر خافت ومتواني:

- لا تيأسي.. لا حياة مع اليأس.. لا بد من العلاج.. لكل داء دواء.. أنت لست الأولى ولست الأخيرة في هذا العالم.. نساء كثيرات لم ينجبن فرزقهن الله في آخر المطاف.. الله أعطاهن.. الله هو الذي يرزق..

- نعم صحيح.. صدقت.. الله هو الرزاق..

ولحظة من الصمت الرهيب تكتنف المكان.. يصمت الكون لحظة.. ثم يعود

صدى الصوت:

– ولكني فعلت كل شيء و لم يجدي نفعًا.. لم اترك دواء إلا و شربته.. يا رب صبرني.. ماذا عساي أن افعل..

– قلت لك لا تيأسي.. لقد سمعت أن امرأة لم تنجب أكثر من عشرين سنة.. ثم رزقها الله بعد ذلك بذرية كثيرة..

– يا سبحان الله.. ولكن كيف هذا؟ هل تعرفين كيف؟

– نعم اعرف.. طبعًا كل شيء بإرادة الله.. يقولون أن هناك رجل صالح ومبروك.. ذهبتْ إليه تلك المرأة فأعطاها ورقة كتب عليها ادعيه وأشياء.. ثم اغتسلت بمائها.. فأنجبت..

– سبحان الله.. معقول! ولكن! يعني هذا درويش! بس الدراويش! حرام! كفر والله اعلم..

– كيف حرام؟ ليس حرام.. أبدًا.. أي حرام..

– معقول مش حرام!

– الحرام حرام والحلال حلال..

– يعني.. صحيح هنالك الصالحون المباركون.. آه.. لما لا أجرب؟ في النهاية كله بيد الله.. لا بد لي أن أجرب.. أتعرفين أين يسكن؟

– غدًا سأعرف وسنذهب سويًا.. قولي إنشاء الله..

– إنشاء الله..

ويعود الصمتُ مرة أخرى.. وتهبطُ السكينةُ على المكان.. ويبقى ذلك الضوء ينبعث بعيد..

* * *

يا له من نحس!

جويعد في الخمسين من عمره، طويلٌ ونحيف، وقد بانت انحنائته.. شعره اشعثٌ متطايرٌ كأنه في عراك.. ولحيته توزعتْ في انحاء وجهه دونما انتظام.. يسير وخلفه حماره بخطوات سريعة وقد بدت سمات الرضا على وجهه وهو يتمتم بصوت خافت.. الحمد لله.. الحمد لله.. ها هو الباب يفتح من جديد.. سيكون رزقًا طيبًا إن شاء الله.. فهذا الرجل غني بلا ريب.. نعم، انظر إلى سرواله وحذائه إنهما جديدان.. انظر إلى ذلك الربَّاط.. ربَّاط حذائه الجميل، انه من النوع الأصيل الغالي.. انه رجل من علية القوم دون شك.. تفوح منه رائحة جميلة وشعره يلمع من الدهون الثمينة التي يضعها عليه.. لا بد انه يمتلك المال الكثير وسيعطيني اجري كاملًا.. الحمد لله.. الحمد لله.. لقد استجاب الله دعائك يا صبحة.. صحيح إنها امرأة طيبة.. وكيف لا وقد استجاب الله دعائها.. الله يجازيك بالخير يا صبحة.. اذكر حين تزوجتها لم أكن امتلك إلا القليل.. كنت اعمل حدادًا لدى الحاج حرب.. ذلك الرجل اللعين! أذاقني الكثير من العذاب وكان بخيلًا.. يعطيني بخس دراهم معدودة.. أتذكر جيدًا حينما طلبته المزيد من القروش.. يا له من لعين! لكنه مات رحمه الله.. لا يجوز عليه سوى الرحمة.. عندما تزوجت من صبحة تلك المرأة البيضاء الجميلة الحسنة.. صحيح أنها اليوم لم تعد كذلك وقد افسد الدهر ملامحها.. إلا أنها ما زالت طيبة.. منذ تزوجتها وجدت عملًا آخر وكسبت مالًا واشتريت حماري الذي أسميته "نبيه".. يساعدني في عملي وفي حياتي.. وها هو الله يستجيب لدعاء صبحة ويرزقني بابن الحلال هذا.. وبينما كان جويعد يعيش

في أحلامه وهو شارد الذهن وإذ بالرجل يهتف به:

- أنت! أيها الرجل! انتبه إلى الطريق! انظر إلى الشوالين! احملهما إلى بيتي.. هيا بسرعة! لنصل قبل الغروب..

ابتسم جويعد وتحرك بسرعة ليحمل الشوالين... وكان يتمتم:

- إن شاء الله... يا قوي.. آمنت بالله العظيم..

وحمل الشوالين على ظهر حماره "نبيه" وسار الرجل الأنيق وخلفه جويعد يقود حماره وراءه.. وكان الرجل يكلم نفسه ويقول:

- آه.. يجب أن أصل قبل الغروب.. ترى هل ستصدقني؟ هل ستغضب مني؟ ترى!

ووصل جويعد وحماره إلى العنوان.. وكان بيت وسط سرب من البيوت الجميلة.. بيت فخم كبير من الحجر الأبيض.. اقترب الرجل الأنيق من البيت وقد بدت عليه ملامح القلق.. دق الباب بقبضة مرتعشة ثلاث مرات.. ومن أعماق البيت رد صوت أجش:

- من الطارق؟ من بالباب؟

فرد الرجل متنحنحًا:

- أنا.. هذا أنا.. لقد أتيت..

ونزلت السكينة على المكان.. وخيم صمتٌ عميق.. وفجأة سُمع أزيُز الباب.. تراجع الرجل خطوتين إلى الوراء.. وجويعد وحماره واقفان لا يدريان ما يحدث.. وفتح الباب وإذ به امرأة غريبة الشكل، قصيرة الطول عريضة وبدينة، تحملق بعينيها البارزتين نحو الرجل وكأنها رأت شيطانًا يقف أمامها.. وبعد دقيقة من

الصمت صاحت بصوتها الأجش:

- أنت مرة أخرى! أيها الشيطان! لماذا أتيت؟! الم أطردك من البيت؟! الم اقل أني لا أريد أن أراك! ها!

فرد الرجل الأنيق وهو يرتعش:

- عزيزتي! ماذا دهاك؟! أنت زوجتي وأم عيالي!

فصاحت المرأة بسخط:

- لا أريد أن أراك! اغرب عن وجهي أيها الحقير! انصرف فاني اشعر بالدوار حينما أراك.. هيا أيها الشيطان.. تفوووه!

وأوصدت الباب بقوة.. طراخ!!

ووقف الرجل الأنيق بصمت شديد.. وكان جويعد وحماره ينظران إلى هذا المشهد الغريب دون حراك.. وطأطأ الرجل رأسه وانكمش ثم نظر إلى جويعد وفي عينيه نظرة باكية.. ولم ينبس ببنت شفه وبقي صامتًا لبعض الوقت ثم قال بصوت يكاد لا يسمع:

- أنا آسف..

فتنحنح جويعد وتحرك من مكانه وقد بدا عليه الحرج وقال:

- هئ..هئ.. لا عليك! لا عليك! هذه الأمور تحدث كثيراً.. ستتغير الأحوال إن شاء الله.. لا عليك! ثم ربت على ظهر حماره وأكمل.. تحدث في أحسن العائلات.. ثم اقترب الرجل الأنيق من جويعد وقال له:

- في الحقيقة أنا لا املك نقودًا.. وقد كنت انوي أن اخذ من زوجتي لأعطيك.. وقد رأيتَ ما حدث.. فوقعتْ هذه الكلمات على جويعد كالصاعقة.. لقد أنهدم الحلم.. لقد تملص الرجل الأنيق منه ولن يدفع الأجرة..

يا له من نحس!

* * *

سداد دين

طراد في الثلاثين من عمره.. تاجر في سوق الخضراوات.. وصل إلى احد البيوت الجميلة في البلدة الكبيرة وطرق الباب:

- دق.. دق.. دق..

فلم يرد احد.. فجلس ينتظر وقد جالت الأفكار في رأسه:

- قد يكون نائما أو لعلّه ليس موجود.. سأنتظر نعم سأنتظر.. لقد أتيت باكرًا.. قبل الوقت.. اللعنة عليّ! دائما أصل قبل الوقت.. سوف اجلس..

وجلس طراد بقرب الباب ومر الوقت ودارت الساعة وعلت الشمس في كبد السماء.. وما زال منتظرًا.. ارتفعت حرارة الشمس وغارت عينا طراد في رأسه وانكمش جسده وازدادت ملامح اليأس على وجنته.. وقام من مقامه وطرق الباب مرة أخرى:

- دق.. دق..دق..

فلم يجب احد.. ثم نادى بصوت يميل إلى البكاء:

- يا حاج! يا حاج! لقد أتيت كما وعدتني.. يا حاج!

فلم يجب احد.. ولم يسمع سوى صدى صوته يدوي بين الأزقة والبيوت.. ثم اطرق قليلًا وارتخى جسده والتفت حوله فلم ير احد.. واخذ يكلم نفسه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد وعدني اليوم.. أيكون نصاباً!؟ محتالاً!؟ معقول! كيف هذا!؟ موعدي معه اليوم.. اللعنة! كلما أقسمتُ أن لا أداين احد أعود

وافعل.. خلص! هذه آخر مرة.. اقسم أني لن أداين احد قط.. وهبط الصمت على المكان للحظة.. وفجأة سُمع اهتزاز الباب وهو يُفتح.. فانتفض طراد ملتفتًا إليه.. وإذ بالباب امرأة ضخمة جداً.. سمينة جدًا وعريضة.. شعرها منفوش.. وازيز انفاسها مرتفع.. كانت تفرك عينها الحمراء كالجمر.. وتحك رأسها وتنظر إليه بتمعن.. وقالت بصوت فظ وسمج:

- من أنت؟

فتنحنح طراد وبلع ريقه مرتين.. وأجاب:

- أنا.. احم.. أنا.. في السوق..هناك.. الخضراوات.. أريد الحاج محمود..

فردت المرأة بعنف وهي تحك انفها:

- الحاج محمود!.. مممم.. لا يوجد هنا حجاج.. الله ييسر لك! وطرقت الباب بعنف.. طراااخ!

ووقف طراد مشدوهاً.. مصعوقاً .. لو رأيته لظننته تمثال..

***

حكاية من الشارع

كان الليل قد جُن وادلهم الظلام وهبطت السكينة على المكان وهدوء غريب غطى ملامح الحي.. ولم تعد صيحات النساء تُسمع ولا قهقهات الرجال.. وعلت اصوات الصراصير البعيدة.. وكان الطقس شديد الحرارة.. يوم من ايام الصيف في بلادي، وكانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل وكنا نجلس تحت عامود الضوء في حارتي.. وقليلًا ما نتأخر الى هذا الوقت.. اعمارنا كانت متفرقة، كنا ستة او سبعة.. وكان كبيرنا يجلس في وسطنا ونحن نحيطه بأعيننا وأفواهنا الشاغرة وأبصارنا الشاخصة، لو اطلعت علينا لوليت منا فرارًا ولملئت منا رعبًا، نستمع لحكاياته المخيفة، كان يحكي لنا قصصاً عن الاشباح والأموات.. تلك التي تفيق في الليل وتسير في الحارات، وكان يلوّح بيديه وهو يروي لنا القصة وشعره اشعثٌ متطايرٌ في كل اتجاه وعيناه جاحظتان براقتان، وكان يبدو كالشياطين، او لعله الشيطان نفسه ولا نعلم.. كانت اعيننا معلقة بيديه النحيفتين التي تشير الى كل صوب، وهو يفصّل لنا اشكال الاموات.. ونحن ننكمشُ وننكمش كلما تحرك وأشار بيديه.. وكان شكله وانفه المعقوف يخيل لنا في الظلام كأنه ساحر او عفريت.. وكان يوصينا بان لا نسب الأموات، لأنهم سيقومون في ساعات الليل المتاخره وسيجروننا من ارجلنا.. ولا اذكر اني سببتُ ميتًا منذ ذاك اليوم.. كنا قد تسمّرنا في مكاننا وتجمدت ابصارنا وشغرت افواهنا وسال لعابنا، وهو ما يزال يردد كلماته التي حبست انفاسنا ورجت اعماقنا..

ولما انتهى من كلامه، قام وركض الى بيته القريب.. وقمنا وهرول الجميع.. وكان بيتي في نهاية الشارع، وقد ارتعدتْ اوصالي واقشعر بدني خوفًا وتخيلتُ اعمدة الشارع عفاريت، وأشجاره شياطين.. تلفني من كل جانب، وقلتُ في نفسي هلكتُ لا محال.. فأغمضتُ عيني وأطلقتُ العنان لساقيّ وهربتُ مسرعًا الى بيتي.. لا اعلم حتى يومي هذا كيف وصلتُ سالمًا.. ودخلتُ البيت فسألني أبي اين كنت؟ لماذا لم تنم الى الان؟ لونك اصفر كالعفاريت.. فلم انطقُ بحرف وذهبتُ الى فراشي صامتًا لأنام..



المعلم وديك الحبش

كان المعلمُ يلوحُ بيديه الغليظتين واصابعه المدببة المكسوة بالشعر الكثيف وجبينه المنكمش يندس عرقًا، وصوته الاجش يرج المكان، وقد انتفخت اوداجه واحمر انفه وانغمرت عيناه في وجنته، فتذكرتُ حينها جيراني وديك الحبش الذي كان يزغرد في الليل والنهار وهو يجول في باحة بيتهم الواسعة، وتخيلته يقفُ مكان المعلم ويزغرد امامنا ونحن ننظرُ الى عرفه الاحمر المتدلي بتفحص واهتمام.. لا اذكر حينها عن اي شيء كان يتكلم، الا ان صوته اثار اهتمامي وذلك الصفير الذي يخرج منه لا اعلم من اين.. كان الهدوء يغطي المكان ولا يسمع لنا حركة، والمعلم لا يزال ينشد سيمفونيته العجيبه، ولا يزال ذلك الصفير يلحن لحنه الرتيب، وكانت الحروف تتناثر من فمه وتختلط برذاذ لعابه الذي يملأ المكان وبين الفينة والفينة، كان يمسح انفه بقوة وكأنه يريد اقتلاعه من مكانه فيزداد احمرارًا ويزداد اقترابًا من ذلك الديك الذي لا تزال زغاريده ترن في اذني حتى يومي هذا..



عندما يهرب العقل

الشمس تنحني نحو المغيب تطرزُ صورة كئيبة.. اجلسُ في غرفتي اكتب كلمات: ”عبر ميدان السوق حيث تتكدس اكوام الزبالة وبقايا الخضار والاوراق المتناثرة في كل صوب.. وقد لف الظلام حنايا السوق والقمر الشاحب تعالى في السماء المنيعة المظلمة.. سكونٌ يطبق على كل الطرقات.. وما هي الا خطوات المارة تسمع من حين لاخر، ومن بعيد تبثُ بعض المصابيح ضيائها على البيوت.. وقد هبت ريح خفيفة من صوب الشمال.. خليطٌ بشري اكتست ملامحهم بالبؤس والشقاء.. صمت مريب وسكوت عميق تمزقه لهثات المارة وهدير الانفاس.. مطرٌ يشطف الطريق ويشطف العالقات الذكريات من زمن تآكلت فيه الساعات واللحظات.. رياح تعزفُ في الافق البعيد وتبعثُ الزغاريد وأهازيج عتيقة.. واطفال يلهثون وراء الفراشات في الحقول..“، ثم افيق من كلماتي، وآوي الى فراشي.. ورذاذ المطر يقرع شباكي الصغير، فأنام ملئ جفوني على لحن القطرات.. فيعلو ذلك الوجه الجميل وتلك الابتسامة.. فيختلط دفء المكان مع دفء الانفاس وتغمر المكان احاسيس تربك المكان والزمان فتهرب العقول وتبحث عن مكان آمن.. فيشتد المطر ويشطف الطريق وخطى السائرين على الطريق ولا يعبأ بملامح الزمان..

***

موقف انساني

جلس رجلٌ بدين ذو كرش كبيرة وقامة قصيرة، خلف طاولة قديمة مصنوعة من الخشب العتيق، وكان يقلب كوم من الملفات القديمة التي تكدست امامه، وبين الفينة والفينة يسمع سعاله وهو يدوي في ارجاء الغرفة ويملأ الطاولة والملفات برذاذ لعابه.. وعلى زاوية الطاولة لافتة مكتوب عليها بخط غير واضح ''شرطي''، كان لسانه يتمتم بكلمات لا يفهم معناها سواه.. ويقلب بأنامله الغليظة الملفات.. ودوت سعلة قوية، ارتجت لها الجدران وتناثر اللعاب في كل مكان.. ثم التفت بنظراته الذابلة الى رجل كان يقف امامه.. اسمه جدوع.. رجل نحيف وقصير.. وقد تدلت شفته السفلى وغارت عينيه في رأسه وتجعدت سحنته وبدى عليه التعب والإرهاق.. وتوجه المحقق البدين اليه يكلمه بصوت يخرج من احشائه لا من فمه:

- اسمع يا هذا! رغم انك تشبه الشياطين! وشكلك كالميت الحي! إلا انك لا تبدو مثل اللصوص، فانا اشم رائحة اللصوص من بين ملايين الناس، اما انت فرائحتك كريهة! عليك اللعنة !

وهبطت السكينة على المكان مرة اخرى.. فقطع السكون سعال الشرطي.. وهو يقول:

- هيا اخرج من امامي! بسرعة! قبل ان اغير رأيي.. ايها العفريت! عليك اللعنه.. تفوو!

واختفى جدوع..

* * *

عبر الحدود

اختفي ايتها الحدود! اقتربي ايتها البلدان! كوني كما تشائين، كوني هواء او ذهب او رصاص.. كما يحلو لك.. ولكن اغربي عني، فاني لا احب ان اراكِ.. ودعي الارواح تلتقي وتتهامس، دعيها تتجول في شوارعك الواسعة متى شاءت.. بدون صور او اشكال.. فلا يستوقفها احد، ولا يسألها احد.. من اين انت؟ ومن اين اتيت؟ واي وثيقة سفر تحملين؟ اقتربي ايتها البلدان وتعانقي.. ضميني بينك.. وخلي بيني وبين تلك الروح، التي تجلس هناك متوشحة ثوبها الاسود الطويل وغطاء راسها.. ذريني والفلاة وحدي، اقابل ذرات الرمل واواجه لفحات الشمس.. اختفي ايتها الحدود.. وحتى لو لم تختفي! ساتخطاك بقلبي وروحي، ساجتازك رغم عنك! واسير في شوارعك، ارقب المارة وكل الحالمين.. وتلك النسمة الخليجية تمشي على استحياء.. في الشارع الطويل، وقد اكتحلت عيناها سواد الليل.. وشعرها الليلي يسافر في كل مكان.. اختفي ايتها الحدود! واقتربي ايتها البلدان! حتى وان كان في الخيال..



جنون كلمات

في ساعات الغروب الجميلة، والشمس تفارق السماء بعد عناق طويل والنسمات العليلة تداعب المكان، تداعت المعاني واشرأبت الحروف لتكوّن كلمات تداوي بها الروح وترحل بالنفس إلى حيث الأفق البعيد، حيث الفراشات وتناغم الورود، حيث الأهازيج العتيقة التي تنفرد فيها الروح وتهدأ فيها النفس وتطمئن فيها السرائر، كلمات لا تعرف للحدود معنى، ولم تعترف يوما بالقوانين.. كلمات طرزت قصة بديعة، ليست إلا في الخيال.. في تلك اللحظات كان لقاء الكلمات صدفة ولم يكن للعقل فيه دور، التقت المشاعر دون ميعاد ودون التقاء العيون، سارت وتمادت وأطلقت لنفسها العنان لتعيش في حلم جميل وفي عا لم آخر، يخلو من كل الهواجس والتخبطات وتلك العراقيل.. اقتطعت من الزمان برهة وجيزة وسافرت بها إلى الخيال.. إلى اللامعقول.. أبت المشاعر أن تتوقف فانسابت كانسياب الماء، لم تعطي العقل فرصة ليضع الموانع والحواجز.. لم تعطه الفرصة أن يختار.. كان صوت المشاعر أقوى من كل شيء.. أقوى من الواقع.. فالتقت الكلمات والهمسات دون ميعاد وتمادت إلى حيث اللاحدود.. وتخطت كل القواعد وحذفت كل العقول.. كانت أجمل كلمات.. ما أروع تلك الهمسات في ساعات الليل الطويل والناس نيام.. همسات

تمحو الجاذبية فنطير فوق السحاب ونلمس الغمام، وتلك الغيوم البيض.. ونستنشق هواءها العليل ونسمات الفجر الأصيل حيث تنعدم الموانع وتتلاشى المحذورات.. همس كلمات تمتزجها الابتسامات وتعلو أنشودة العشق.. ونضحك ضحك طفلين معاً.. كم كانت صادقة تلك الابتسامات التي لم تلتق.. ولم تلتق العيون.. تدفقت رغم كل القيود.. صورة رائعة شكلتها أجمل المعاني والكلمات.. جنون كلمات ..



غزل

لحظاتٌ عابرةٌ من الغزل.. يمنع فيها قول الحقيقة وتمنع فيها القلوب من التناغي.. تُقهر فيها الكلمات وتُحبط فيها العواطف وتُحجز المشاعر وتُكبل بالأوصاد.. لحظات من الغزل الجميل تملأها الكلمات.. فنطير فيها فوق السحاب ونحلم والنجوم سواء، فلا تلتقي العيون ولا تتقابل الأجساد، غزل ممنوع، يمنع فيه أن تخفق القلوب وان تحن الأكباد.. تعتصر الروح من الروح ويختلط الآن والمكان، وتتبعثر المشاعر في كل مكان وتتخبط الأنفاس ويتوقف القلب.. تنخفض الزفرات ويهمد الجسد.. وتختفي النجوم مع اختفاء المشاعر الجميلة ونهبط من فوق السحاب ونتمرغ في التراب.. غزل حرام.. غزل ممنوع.. فنفيق مع الصباح الباكر.. وذلك الندى الذي يملأ المكان..



غريب شأنك!

ما اكثر اللحظات التي اختلسُ فيها الحديث الى نفسي.. استردُ فيها طفل الذكرى الذي ودعني حيث كنت هناك، وتلك العينين الحزينتين التي طالما تعلق ناظري بهما.. ما اكثر الليالي التي سافرتُ فيها مع نفسي.. اسافرُ حيث الذكريات المتباعدة يوم بيوم، وما اجمل الليل الذي يحتضنُ التائهين.. السائلين..

ايها الطفل الساكن حيث هناك! اجبني على ما يختلج في نفسي، ودَع السحاب الراكد فيك ينبعث مطراً يروي حيرتي.. حنين كالصلصلة في كنف الظلام.. ارغبُ في ان امزق الثوب القديم، وان اهدم البيت القديم، وانبعث فجراً جديداً وقلب متمرد، يعشق الشموخ ويرفض السبات.. صوت ناي حزين، يغني العاشقون ويرقصُ الحالمون، اغنية الماضي الممتد الى حد النسيان والمشتت الى حد الصِفْر.. اسافرُ حيث لا حلم ولا خيال، حيث الحقيقة الدامغة، حيث لا غضب ولا جزع.. ارتحلُ، وأسيرُ بصوت يحتقر الصمت والتواني ويلعن التلعثم والانحصار.. الى تلك الحقيقة التي اثقلتها الحمى وافقدها بصرها الرمد..

مع بزوغ الفجر وتدحرج الضباب فوق الارض.. اناجيك عبر المطر.. ايتها النفس.. بضع من الدهر يداولني ويتلفعني الضجر، وفي كفي تجمعت ينابيع من القهر.. انتهى رحيلي بين الاقمار وانتهى السفر، وقاربي المحطم يملأ الافق غبار وكدر.. عبر

طول المسافات اشم رائحة حنينك اناجيك فامسحي بكفك على راسي عسى ان يزايلني الضجر.. اسمع من بعيد رنين كلمات.. غريب شأنك حتى الدهشة.. حتى السخرية.. تطلب من الماء ان ينصب فوق الصخر ويفيض نبعا يروي الحالمين.. غريب شأنك!



ماذا اكتب؟

جلستُ خلف مسطبتي وبريتُ قلمي ونشرتُ اوراقي، لكي اكتب موضوعاً للصحيفة.. يحتار الكاتبُ احياناً كثيرة ماذا يكتب؟ او كيف؟ تتخبط الافكارُ وتتصارع فتقبل وتدبر وتأبى ان تخرج الى حيز الوجود.. لا ادري لماذا تختفي الافكار وترفض ان تظهر للعيان.. هل تخاف ان يراها الناس؟ ورغم هذا فلا بد لي ان اكتب عن شيء ما.. اعتقد ان الكتابة في السياسة مملة، فهي وصلت الى حد الاجترار.. لقد مل الناس منها.. او اكاد اقول كرهوها، لانها لا تجدي نفعاً.. فماذا اكتب اذاً ؟ هل اكتب شيئا عن الثقافة؟ وهل يحتاج الناس الى من يذكرهم بمعنى الثقافة او اهميتها.. تلك التي غدت في غياهب النسيان.. ومن اصلاً يريد ان يفكر؟ فالناس كلهم اذكياء وكلهم يعون احتياجاتهم ومتطلبات المرحلة.. ومن انا اصلاً ؟ حتى اكتب مقالاً او كلمات في هذا الموضوع؟ فهل اكتب في الرياضه؟ وماذا افهم في ذلك؟ وهل عندنا رياضه؟ وهل لنا ملاعب؟ او حتى فريق يذكر؟ او اكتبُ ان قطيعاً من الماعز كان يسرح في ملعبنا.. سيغضب الناس لا محال.. وسيقولون اني اسخرُ من الماعز.. اذاً فماذا اكتب؟ اكتبُ في الصحه؟ لا.. لا.. وما دخلي بالصحة.. فليفعل الناس ما يريدون بصحتهم.. احرار.. يا لحيرتي..

ان الصحيفة تنتظرني ولم اكتب شيئاً.. حرفاً او كلمةً.. ما اصعب التفكير.. وكأن المعاني اختفت.. ذهبت.. ولم تترك اثراً لها، علّي اقتفيه.. فاكتب ما يفيد الناس ويصلح من امورهم او حتى يغذي ارواحهم.. اتدرون! لن اكتب شيئاً! وليكن ما يكون.. ويكفي ما تعرفون..



الهجر

لا تتركيني..

فانا لا اعرف صديق سواكِ

لا تذريني..

فاني أخاف أن لم أراكِ

لا تهجريني..

فقلبي يخفق في هواكِ

لا تجزعي..

كلنا نجول في سماكِ

نقطع الطريق عبرك

لا تتوقفي عن المجيء..

استرسلي.. مدي خطاكِ

سيري وانبعثي..

ورود وشذى نداكِ

نسمات في الصباح

يضيء نفسي سناكِ

لا تتركيني أيتها الكلمات..

روحي وقلمي فداكِ

* * *

بين الهشيم

غربت الشمسُ، وارتفعت النجوم.. ايشمخ الرأسُ؟ والحقيقةُ المفقودةُ؟ ويزولُ اليأس؟ بين الهشيم والرماد تنبتُ النفس! يُسمعُ همس! بكاء ميت وانين.. الحقيقةُ غدت امس.. دوامةٌ من النسيان.. فهل تبزغُ الشمس؟

* * *

المطر

قصف رعد..

عزف ريح..

غيثٌ في بلادي

مطرٌ يشطف الطريق..

ذكرياتي وآهاتي

مطر يمسح الواجهات، وشباكي

نسمات من السقيع..

تخنق الضياء العالياتِ

طير يرفرف، وبلبل شادي

ورقة خضراء تطير في السماء..

تبرق الرعود في الغيوم..

تضيء الطرقات الضيقاتِ

صمت يملأ المكان..

يهجع كل حاكي

مطر يطرق الشباك..

ويرسم الفراشات الراقصات دخاني

شاي وفنجاني

في بلادي في بلادي..

يشطف المطر السنون..

تبتسم العيون وتناغي، والالحان..

تنشدها الغانياتِ

في بلادي تنام الكائنات



ان اعيش

لو كان لي أن أعيش!

أن اعبر الطريق دون التفاتْ،

لو كان لي أن أبوح!

أن أملأ الدنيا صيحاتْ،

لو كان لي أن أمد الخطواتْ!

لو كان لي أن اطرق الباب!

أن اترك الذكرياتْ،

أن الفظ كل يوم كلماتْ،

كلمات وابتساماتْ،

لو كان لي أن اجمع الورود!

اقطف أزهار الحياة،

لو كان لي أن اقبل الجبين!

أن امسح الدموع السائلاتْ،

لو كان لي أن ارسم الوجه الجميل!

أن احضن الآهاتْ،

أن اترك الوجع..

أن اشطف العيون الباكياتْ،

لو كان لي أن اجتاز العثراتْ!

أن أغمض العيون الساهراتْ،

لو كان لي أن أعيش!

أن اعبر الطريق دون التفاتْ



لو اني اعلم

لو اني اعلم..
انك لن تبقى،
لهجرتك منذ زمان..
ولكنت رحلتْ،
وأخذت رسالاتي واختفيتْ
لو اني اعلم..
ما كنت أبعثر أوراقي،
وريشتي ودواتي..
ولكنت غادرتْ
لو اني اعلم..
لصفعتك بقبضتي،
ودفاتري في وجهك مزقتْ
لو اني اعلم..
لحبست الدمع على ما كان،
ولما اشتكيتْ
لو اني اعلم..
ما كنت بقيتْ

* * *

توقف اللسان

تتهاوى الساعات، والكلمات.. ماءٌ باردٌ ينساب على جسد مات.. اما آن لك ان تعلم! ان ما فات فات.. ويبقى التمرغ في الوحل والتراب.. تشعُ في النفوس الترهات، وصوتك مزعج حتى الممات.. والزمان يسير والساعات واللحظات، من بين عظامي وانفاسي في صدري، تنساب كالنسيم.. يا زمان! كل ما فيك امسى رفات..

في دفتري حروفي، احترقتْ.. جف قلمي ودواتي، وقف عقلي.. عباراتي اهترأتْ وتعالى الدخان، واختنقتْ.. وقفتْ الانفاس وتصاعدتْ.. كالركام اصبحتْ، فهوتْ تلك المعاني القديمه.. من لساني تطايرتْ، وفوق العقول والقلوب توقفتْ..

* * *

طفلة

أنا طفلةٌ عاديةٌ..

تبسمتْ ، تحدثتْ

أنا ذكرى جميلةٌ، كشفتْ..

عن سنها وتكلمتْ

أنا وجع الزمان..

والعيون الباكياتْ

أنا عبق النسيان..

والمعاني الغالياتْ

طفلةٌ نقيةٌ..

أعانق الصباح والنسماتْ

روحي ملكيةٌ..

انشد النجوم العالياتْ

والعيون الصافياتْ

أنا الدهر،

أنا القهر،

والورود الشائكاتْ

عيوني عسلية، والبسماتْ

أنا طفلةٌ عاديةٌ..

أنا اللحظة أنا الساعاتْ

وخصال شعري الليلي تناثرتْ

تكلمتْ وتبسمتْ

* * *

تشتعل الذكريات

رشاتُ مطر تطرقُ الشباك.. وبيتٌ قديمٌ اصبح ذكريات.. خطأ ام صواب! ان دب الحريق في البيت القديم! وان تشتعل النسمات.. رشاتُ مطر تقرع مسمعي.. ويعلو الدخان الاسود كالليل وتخفتُ الاصوات.. تلهثُ الانفاس في الظلام، ويمتلئُ البيت همسات.. اشتعلتْ النار في الجدار.. حطام ورماد.. كل شيء باتْ.. حتى لعبتي القديمة، التي بلا روح، اضحتْ رفاتْ.. رشاتُ مطر تطرقُ الشباك ..وتشتعلُ الذكريات..

* * *

الهروب

اوصدت الكوخ ورحلتْ دون استئذان.. حتى الالتفاتة لم تعرني، حتى انها ما قالتْ سلام.. اوكلام.. فقط حملتْ امتعتها وحقائبها.. وسارتْ.. اختفتْ في الظلام رغم هذا كله، مني اليها سلام..



اكذبي

اكذبي! ادعي كل الاقوال! اخدعيني.. وزعيني حروف وكلمات، قيل وقال.. خربشي في صفحتي ومزقي دفتري.. حتى ذلك الفنجان، الذي اهديتك اياه زمان.. اكسريه ولملميه.. ان شئت، حطيه في شوال.. فكلماتك تشبهكِ.. حين تختفين في الآصال..



عشر من الاعوام

عشر من الاعوام.. توقفتْ، وبقيتُ فيها.. لا تغادرني ولا اغادرها.. عشر من الاعوام.. اقتطعتها من عمري.. مكثتُ اناغيها.. تداولني واداولها.. عشر من الاعوام.. خطتْ في دفتري، حروف سنيها.. عشر من الاعوام .. ما زلتُ اناديها..



تمرد

اذكرك، رغم القيود.. اريدك، رغم الحدود.. بعدّ اوراق الشجر، وقطرات المطر..

فانت القيود.. وانت الحدود..

لا تجزعي! اني وهم وخيالْ.. ظل لجسد ماتْ.. اضحى رفاتْ.. ولم يتبق مني شيء.. سوى كلماتْ..



المعاق

سكونٌ يمتد على المكان.. مللٌ يعانق الروح.. وضبابٌ يتدحرج على الارض.. روحٌ تناثرت صوب الغبار وصوب الغمام.. وظلٌ غريب يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، لو اطلعت عليه لوليتَ منه فراراً ولملئتَ منه رعبا.. ولظننتَ انه ثمل يختلع القدم تلو الاخرى وفي كل مره يقبل جبينه التراب.. يداه هاوية على جنبيه تأبى الحراك.. او التزحزح.. يسير في الظلام وانفاسه تشق السكون.. ولهثاته بركان ثائر.. يشهق شهقات يملأها السخط.. وبين جنباته تختلج عواصف من المعاناة.. نظره في الافق الممتد الى اللانهاية.. ورغم تجاعيد وجهه المتراكمة تراكم الزمان والشقوق المزدحمة ازدحام الايام.. تعلو على شفتيه ابتسامة خفيفة.. آتية من العمق .. تأبى التكدس والركود، وكل معاني الجمود..



بودابست

أعجبُ من حالنا نحن العرب.. شعبٌ عاطفي جداً.. يقبل أي شيء، فقط أن يدغدغ العواطف.. إذا أردتَ أن تحصل من العربي على شيء ما.. هه! دغدغ عواطفه.. اشحن عواطفه وابكي أمامه وسيجيبك بلا شك.. العرب لم يتركوا شيئاً إلا ووضعوه في مثل:«الكلام اللين يغطي الحق المبين».. إن الشعب العربي يعاني من فقدان الذاكرة المزمن.. فهو يفقد ذاكرته كل قرن أو اقل.. ويبدأ من الصفر.. لا يتذكر إلا ما هو جميل.. فالعرب يحبون تركيا وينسون التاريخ.. وها هي الجزائر تعشقُ فرنسا.. وليبيا تحبُ ايطاليا.. ونحن ومصر نتذبذبُ للانجليز.. امنيزيا العرب.. لقد فهمتُ اليوم لما دائماً يبكي العرب على الأطلال.. طبعاً شعب حساس جداً.. وهو يبكي من أي شيء وعلى أي شيء.. مسلسل تركي يبكيه.. مسلسل هندي يبكيه .. هه ! كلنا دموع.. النفط في الخليج سيجف ودموعنا لن تجف.. نبكي فرحاً أو نبكي خوفاً أو حتى حزناً وقهراً.. المهم أن نبكي.. مدمنون على البكاء.. غريبٌ أمر العرب.. اذكر أن احد الأجانب في دولة لا نحبها سألني سؤال.. قال:

– قل لي يا صديقي العزيز.. عندي لك سؤال، ولكنني محرج اشد الحرج..

فقلت له:

– دعك من الحرج.. ولا تخجل.. لا يخجل إلا الشيطان هه! ولا حياء في المعرفة..

فقال:

– أصحيح أنكم امة العرب أخوه؟ أليس كذلك؟

فقلت له منتفضاً وشامخاً، منتفخ الأوداج:

- نعم! طبعاً! نحن أخوة بلا شك!

فاستطرد وقال:

- إذاً ! لماذا تقتلون أنفسكم بهذه الوحشية والشناعة؟

فهبط صمت مقيت على المكان.. وتنحنحتُ.. وتحركتُ من مكاني وفركتُ عيني وشربتُ ما تبقى من قهوتي.. واعتدلتُ.. وقلتُ بصوت أجش.. يخرجُ من بطني لا من حلقي:

- ممم.. بصراحة سؤالك محرج.. ولا ادري.. اامممم..

وصمتُ قليلاً.. ثم أكملتُ مازحاً:

- هه! أتعلم اني سأسافر الى بودابست الشهر المقبل..



الحلم

خفتَ الضوء، واشتعلَ الحلمْ، احترقتني حتى النخاع، حتى العظم.. بلواحظ كالسحر القديم، كالمشعوذ العظيم.. تقمصتني ببطئ مقيتْ، فجرتْ مجرى الدمْ، وباتتْ حيث أبيتْ.. كل شئ اخذته، مخدتي، ودفتري العتيق، حتى القلمْ.. تأبطتني، جلستْ في حجري كظلي، كنفسي، منذ القدمْ.. يتدحرج الضباب وقت السحر.. فيشتعل الضوء ويخفتُ الحلمْ..

* * *

صلصلة

تخاصمُ الشمسُ البحرَ، وتعانقُ الكواكب في الفضاءِ.. ويلعقُ لسانُ شعاع الفجر السحاب، المتناثر في كل مكان.. وتشعشع حمرة الخجل على صدغ السماء.. فتصور ايقونة يخفق لها الجنان.. واطرق اصغي للهفةٍ، كصلصلةِ سعف النخيل في الشتاء، تداعبها انامل نسمات باردة آتية من صوب الشمال.. لجٌ وصخبٌ مضطردٌ يمتزجني ويبعثرُ روحي قطرات ندا عبقري سناها... اهزوجة الفرح القديم، على مزمار عتيق، وطبلٌ رتيب يخلخلُ العظمَ، يرجُ الكيان.. وفي ساعات الفجر الفاتنة.. حين يتبين الخيط الابيض من الخيط الأسود.. وتتدحرج قطرات الطل على الأفنان.. اتنشق رائحة عطرة فواحة، من وردة جوري تفتحتْ واينعتْ.. انبعثتْ عبقاً يملأ الافق، ويعجُ في المقام.. تناثرتْ مع نفحات الفجر الأصيل، شاعتْ طيب وآمال.. اوجدتْ لحظة من شغف، وبرهة من وله.. تسربلتني وانطبعتْ في أنفاسي.. حتى خفقات قلبي لملمتها، ورتبتها.. رغماً عني.. واعترتني لهثات انفاسها، وصوتها العذب الرقيق، كبلبل شادي، رنم انشودة صبابة وهيام .. لحظات يضطرب فيها الفؤاد ويناجي.. ونسماتٌ باردة تلامس روحي وقت السحر..

***

افق الزمان

شخصت العيون..

ومن غدر الزمان اشتكتْ،

من كل شيء حولها..

حتى الساعات توقفتْ،

وساعتي في يدي..

عقاربها القديمة تعطلتْ،

والعيون الباهتات..

في وجه الحقيقة الدامغة،

بكل الحسرات استسلمتْ،

والوجوه العابسات..

والشفاه تشققتْ،

شحبت الوانها، وبالسواد اكتستْ،

حتى شقائق النعمان، والورود..

مابقيت وما نمتْ ،

ان العيون الباكيات..

في افق الزمان تسمرتْ

* * *

رنده

اكتبُ هذه الكلمات ودمعٌ في عيني سال.. جائتني تهرولُ وهي ترفرفُ بيديها الجميلتين الاخاذتين، واصابعها الرقيقة.. وتشيحُ بوجهها الطفولي، وكانت تبتسمُ ابتسامتها الساحرة المعهودة وصوتها الحنون وضحكتها التي تخطفُ الابصار وتسرقُ الالباب.. كانت لا تنظر الي بعينيها الرائعتين، بل تنظر الي بروحها ووجدانها، وكانت روحها تتقمصني وتولج فيّ حتى العمق وحد العظم.. كانت تناغيني بعالمها الخاص وتلمحني بنظراتها فيخفق قلبي شخفاً بها.. وشعرها الاسود الليلي القصير، الناعم الجميل ينساب في كفي، فالملمه واحتضنه واشمه، فينتابني احساسٌ رائعٌ.. تمسكني بااناملها الصغيرة وتقودني الى حيث تشاء.. لم اسمع منها قط كلمة "ابي"، الا اني ارى كل الكلمات والمعاني في عينيها.. كم اطوق الى مشاركتها في عالمها، وكم اردت ان اتنفس من انفاسها ومعانيها.. طفلتي الجميلة، رنده!

* * *

تم بحمد الله وتوفيقه



لو اني اعلم
انك لن تبقى
لهجرتك منذ زمان
ولكنك رحلت
وأخذت رسالاتي واختفيت
لو اني اعلم
ماكنت أبعثر أوراقي
وريشتي ودواتي
ولكنك غادرت
لو اني اعلم
لصفعتك بقبضتي
ودفاتري في وجهك مزقت
لو اني اعلم
لحبست الدمع على ماكان
ولما اشتكيت
لو اني اعلم
ماكنت بقيت